بقايا ذكريات

القرية – الأهرام ـ باريس

دكتور

سعيد اللاوندي

- مدير تحرير الأهرام
- مدير مركز الدراسات الأورومتوسطية
- مدير تحرير لوموند ديبلوماتيك
- خبير فى العلاقات السياسية الدولية



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد
اســم الكتاب : بقايا ذكريات
المـــــــــؤلف : د. سعيد اللاوندي
تصميم الغلاف: مسعد غيث
رقـــم الإيداع :
الترقيم الدولي:



الطبعة الأولى ٢٠١٧

كلمة

المؤلف بريء من أية مقارنات ظالمة! وأية تشابهات مجحفة «ولا علاقة له بجهل الجاهلين» و«أنصاف المتعلمين» والله من وراء القصد!

إهـــداء

إلى الجيل الجديد من أبناء هذه الأرض الطيبة لافتا أنظار الجميع إلى أنه بالعلم والإيمان والمعارف تبنى الأمم أمجادها..

مقدمة

شاءت أقداري أن أوزع أيامي (أيام الصبا / الشباب) بين باريس (عاصمة النور) وعزبة المهندس (الأرض الطيبة).

وأشهد أنني تعلمت العصامية والجد والاجتهاد.. والطموح من عزبة المهندس وأهلها (المؤسسون الطيبون) الذين أنجبوا بعد ذلك شياطين مردة إلى الحد الذي أنكر أنني أعرف هذا الجيل الذي حدثني مسئول الأمن في المركز بأنهم من أشر الناس وأكثرهم ضياعاً.

أقول أن الآباء المؤسسين هم الذين علموني وكنت أتخذهم مثلاً أعلى في الحياة.

ولقد تغير ساكنو العزبة وكنت مشغولاً بتحقيق مستقبلي وأذكر أني قرأت رسالة من ابن عمي (وهو المهندس أحمد اللاوندي) أن الأرض الطيبة لم تعد طيبة وأن الجيل الجديد حوّلها إلى فناء للإجرام من باب خلفي لكل الموبقات وأن القيم التي نشأنا عليها قد ماتت إلى الأبد!!

أقول الحق لقد سافرت بقلب عامر بكل ما تعلمته من الآباء المؤسسين الذين أنشأوا هذه (القرية الطيبة) بأصول القيم والعادات والتقاليد والواجب.. فكل بيت كان بيتي.. ورجالها هم أعمامي ونساءها هن خالاتي وأبناءها كانوا أخوة لي.. من يذهب معي كل صباح إلى مدرسة (الصبرية الابتدائية المشتركة) أو الذين يذهبون إلى الحقل، فالأمسيات كانت تجمعنا في محل الخياطة لصاحبه الحاج عطية أو على الكوبري الذي كنا نظنه – ونحن على حق – أنه تيراس شانزليزيه القرية!

وأذكر أن أعرابي وأنا – كنا نتحاور ونتناقش مع بعضنا البعض ونطمع في أن تكون العزبة بلداً كبيراً تنعم يوما بالكهرباء ويشرب أهلها الطيبون ماءً نقياً ويستحم أهلها في مراحيض الجامع بماء صافٍ مكرر!!

نعم كنا نحلم لكن غاب عن بالنا جميعا أن الحال قد يصبح غير الحال والتعليم الذي كان نافذتنا الوحيدة على المدنية لن يكون له مكان بيننا وأن الشعار الذي كان معروفا من أثر ثورة عبد الناصر «مدرسة ابتدائية كل ثلاثة أيام» لن يعره الكثيرون اهتماماً.. أقول غاب عن بالنا هذا كله ومرت سنون العمر وكرّت كدبات المسبحة وتحولت العزبة بجيلها الجديد إلى شيء ممسوخ تمجه الأفواه البريئة وتعافها الأجساد الطاهرة.

على أي حال لقد أشربنا منها النقاء ولأمر ما حتى الآن لا نتكلم عن أحد من (جيل الرواد) إلا مسبوقا بكلمة (أخوك) لأننا كنا نوقن أننا أخوة لا مِراء!

وأشهد أن أبشع ما حدث هو أن جيل أنصاف المتعلمين «هم الذين تصدروا المشهد» فباعوا كل شيء واعتبروا العزبة وأهلها «سبوبة» فباعوها لتحقيق مصالح شخصية رخيصة .. وتآمروا على كل أعمال الخير التي تحدث فاستأصلوها حتى أصبحت العزبة صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء! فتكوم جيل الرواد بعد استئصال من ذابوا (في مستنقعات الأنانية والبيع والشراء على نفسه) والتقى من بقي منهم في المنتديات الرسمية في قاهرة المعز ونسي الجميع العزبة أو تناسوها فأصبحنا نتصيد أخبارها الميئوس منها ونحزن (بحمرة خجل وندم) أن قادها أنصاف المتعلمين هؤلاء إلى هذا المستنقع!!

أقول ذهبت إلى باريس معتزاً بعزبتي وأهلها الطيبين الذين لم أكن أنساهم خصوصاً الذين فارقونا وسبقونا إلى دار البقاء لكن الطموح الذي رسمت أشطاره على كوبرى العزبة سعيتُ بعون الله وفضله إلى تحقيقه.. وكنت أمشي في شارع الشانزليزيه أقرأ كتاب الدين – بحث في العقيدة الإلهية لعباس محمود العقاد وكتاب آخر عن ظاهرة التدين للفيلسوف الجزائري مالك بن نبيّ وثالث عن التدين أيضاً للدكتور عبد الله دراز والعزبة في ركن قصي من ذاكرتي لم أنسها.

وتعلمت الفلسفة السياسية واتخذت طه حسين عميد الأدب العربي مثلي الأعلي واكتشفت العقل الذي كانت كلية الاقتصاد والعلوم السياسية قد حركته في رأسي ثم انطلقت بعد ذلك مع ابن خلدون في الماجستير وعباس العقاد عملاق الأدب العربيّ في الدكتوراه.

وعشقت باريس ضمن ما عشقت – تيراس المقاهي الذي كان يسلب الألباب بالإضافة إلى المكتبات والكتب وما لا أنساه عندما كنت أركب الحافلة العامة مع صديقي العراقي الدكتور زهير أبو الريحة الذي كان يغني لنجاة الصغيرة أغنية من أشعار نزار قباني فكان الطريق إلى جامعة السوربون من أمتع الطرق مع سماع هذه الأغاني التي تعيد ذكريات الصبا والأيام الخوالي في العزبة (الأرض الطيبة) وكنا عندما نذهب إلى الجامعة نتحلق حول أستاذنا بيير تييه في مكتبه وهو يشرح لنا كتاب النفس لابن سينا وكنا لا نزيد عن عشرة أشخاص من تونس والمغرب ولبنان والعراق ومصر وموريتانيا والجزائر.

هي أيام بعثرناها بين عزبة المهندس وباريس نهلت من الأولى القيم وحققت في الثانية الطموح الذي تعلمته من الآباء المؤسسين فلولا الأولى لما كانت الثانية..!

د. سعيد اللاوندي

القسم الأول
أيام في عزبة المهندس (الأرض الطيبة)

كلمة لابد منها:

.. ولدت في عزبة المهندس في عام ١٩٥٥.. وظللت بها حتى أنهيت دراستي الثانوية في مدرسة الشهيد عودة في شربين.. أما المدرســـة الإعدادية فكانت بالقرب من قرية دنجواى وتعرف بالمؤســسـة.. ولا أنس أن تعليمي الابتدائي كان في قرية الصبرية المجاورة لعزبة المهندس..

أي أنني لم أتعلم حرفا واحدا في العزبة.. فقط تعلمت من رجال العزبة الذين كانوا كلهم أعماماً لي.. وكذلك نســاء القرية اللائي أحترمهن جميعاً وكانوا في حكم الأمهات لي.. جزاهم الله خير الجزاء.. من بقي منهن ومن رحلن.

.. والحق أقول أن عزبة المهندس كانت مرتع صـبـاي.. وكنت أعتز بها وأحمل حبها بين جوانحي.. أينما سرت أو حللت..

.. وبعد أن أنهيت دراســتي في جامعة القاهرة بكلية الاقتصــاد والعلوم السياسية (قسم العلوم السياسية) سافرت

إلى باريس على نفقتي الخاصــة.. وفي عام ١٩٨٧ – من القرن الماضي حصلت على درجة (دكتوراه الدولة في الفلسفة السياسية بتقدير ممتاز (مُشــرف جدا) على أن تُطبع الرســالة على نفقة الجامعة لكي تعم الفائدة منها..

وقبلها كنت حصــلت علي الماجســتير بتقدير ممتاز أيضــا وكانت حول فلســفة الدولة عن ابن خلدون.. وفي نفس العام حصــلت من جامعة باريس الرابعة على ماجســتير في العلوم السياسية بعنوان: النخبة العسكرية الحاكمة في أفريقيا..!

وأعترف أن صــلتي – طوال هذه الســنوات – قد قطعت بالعزبة سيّما بعد وفاة أمي – يرحمها الله - التي رحلت عن دنيانا في مارس عام ١٩٨٢ وكان والدي – يرحمه الله- كان قد رحل وأنا في أول المرحلة الثانوية في نوفمبر عام ١٩٧٠ بعد رحيل الزعيم جمال عبد الناصر بحوالي شهرين..

أقول لقد انقطعت صـــلتي «الجغرافية» بالعزبة وشـــققت طريقي وحدي.. لكن ذكرياتي في هذه العزبة ظللت أختزنها في حياتي الباريسية أتذكرها بين الحين والحين..

وكانت علاقتي ببعض الأفراد قد ظلت قائمة أمثال الراحل إبراهيم عوف.. والأسطى عطية حسن والشيخ شحاته زهدى ناهيك عن أخوتي وأصـــدقائي وعلى رأســـهم المهندس أحمد اللاوندي.. والعميد أ.ح. عاطف عوف والعميد شـــرطة محمد رزق.

●●●

وعندما عدت من باريس عملت في مؤســـســـة الأهرام وتدرجت في عملي حتى أصـــبحت مديرا لتحرير مؤســـســـة الأهرام مســـئولا عن إدارة تحرير جريدة لوموند دبلوماتيك – الطبعة العربية ، ولكن صحفا أخرى قد استقبلت مقالاتى مثل المصري اليوم واليوم السابع والأحرار وروز اليوسف..

ونشـــرت أبحاثي في صـــحف عربية في الســـعودية والأردن والكويت والإمارات وشـــاركت في ندوات بالمغرب وتونس والسعودية وبلجيكا، وسويسرا والجزائر..

وألقيت محاضـــرات بجامعات القاهرة وعين شـــمس والمنصـــورة ودمياط والزقازيق وأكاديمية ناصـــر العســـكرية العليا ومعهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية.

وشـــاركت في ندوات في جامعات أجنبية مثل باريس وجنيف. وبروكسل وبون..

.. وكنت سعيداً بحياتي الجامعية والبحثية والأكاديمية.. ولم أعد إلى العزبة مرة ثانية خصوصا بعد وفاة أخي الأكبر الحاج حمدي وأخوتي الآخرين الحاج فكري والحاج شـــوقي والحاج منير - يرحمهم الله جميعا-.. وعدت بعد إلحاح من صـــديقي الحاج عطية حسن الذي استطاع أن يستثيرني بسبب الخبز (ألف رغيف) الذي كان زميل دراسـتي الحاج عبد المقصـــود سـعيد يأتي به من قرية الصـبرية بعد عراك مع بعض الأفراد هناك..

وأذكر أنني كتبت مقالة في الأهرام المسـائى رد عليها محافظ الدقهلية وقتئذ وسلمت الرد لصـديقي محمد الدكروري الذي هنأني على ذلك.. وذهبت للقاء المحافظ ووعدني بأن يجعل هناك فرنا في القرية وطلب مني –كنصيحة- أن أؤسس جمعية ينبثق عنها هذا الفرن الذي جاء بنفسـه في شـهر أبريل من عام ٢٠١٠ ليفتتح الجمعية والفرن والمسـتوصـف الذي كان!

العزبة فى ذاكرتى!

.. لن أنسـى ما حييت أن عزبة المهندس- التي يشـرفنى أن أنتمي إليها وأولد فيها- هى المدرسـة الأولى التى تعلمت فيها فكرة الأصـول وفكرة الواجب قبل أن أقتبسـها فى كتاب الحياة المفتوح..

فكل رجال العزبة كلهم بالضـرورة أبائى وأعمامى.. وكل سـيدات العزبة هن بالضـرورة خالاتى وعماتى.. أما أترابى من هذا النوع أو من ذاك فهم بالضرورة أخوة لى وأخوات..

وأشـهد أن عزبة المهندس كانت تضـم أناس غاية فى الأدب والذوق.. وهم الذين علمونى كيف أطمح.. وكيف أحلم.. وكيف أرفع اسم عزبة المهندس عاليا بين العزب والقرى المحيطة بنا..

..وإن كنت أنسى فلن أنسى موقفين..

● الأول عندما كان أخى شوقى- يرحمه الله- فى الجيش.. كان يأتى فى جوف الليل.. وأفاجأ بأن العزبة كلها- عن بكرة أبيها- كانت تأتى فى اليوم التالى لتسـلم عليه.. وكانت أمى.. يرحمها الله- تقوم بعمل الشـاى فى (الحلة) وليس فى البراد كى يكفى كل الحاضـرين الذين كانوا يعبّرون عن ابتهاجهم بمجيء هذا الابن- ابن العزبة- فى أجازة..

ولا أذكر أن أحدا منهم- من أبناء العزبة- قد نسى أن يأتى ويشرب الشاى ويسلم على الجندى شوقى..

وأشـهد أنها كانت فرحة عارمة نشـعر بها أننا ننتمى إلى أسرة كبيرة هى عزبة المهندس.. فعلا لا قولاً.

● الموقف الثانى هو وفاة أبى- يرحمه الله- وقد دخل هذا الحدث الحزين على فرح للراحل ابن الحاج على الغفير.. الذى قرر الطبيب أنه ربما يموت قريبا ونصـح أهله أن يزوجوه.. فكان أن تم تحديد الموعد.

.. وكانت كل الأمور تسـير فى طريقها المعتاد لولا حادث وفاة أبى.. ورغم ذلك اضطر والد محمد أن يؤخر زواج محمد إلى ما بعد الأربعين.. حدث ذلك رغم أن محمد كان مريضا.

أقول ذلك لأننى كنت أجلس أمام أحد منازل العزبة - مؤخرا احتفالاً بخطبة إحدى بنات العزبة.. وفوجئت بأن محملا يمر من بيننا.. وعزاء على ما يبدو سـوف يقام فى نفس الليلة التى سيتم فيها الفرح..

واندهشت أن العزبة قد تغيرت فيها القيم..

فالفرح لأهله .. والحزن لأصـحابه.. ولا صـلة بين المناسبتين- وكأننا نعيش فى البندر..

قلت فى نفسى.. لقد تبدلت الأحوال فى العزبة ـ فلا أصحاب الفرح رجعوا عن رأيهم وكذلك أصحاب المأتم.. والغريب أنه كان هناك ميكروفنان : الأول في أول العزبة يصرخ بأغانى الفرح ، والثانى يهتك ستار الليل بآيات من الذكر الحكيم إحياء للمأتم..

أقول الحق: لقد ضربت كفا بكف.. وقلت فى نفسى.. «لكم عزبتكم ولى عزبتى..»

هذان الموقفان لا يبرحان خيالي.. وهما أكبر دليل على أن عزبة المهندس هى مدرسة القيم الأولى التى علمتنى الصحيح من الزائف..

وقد أتيح لى من خلال الفترة التى عشتها فى العزبة صغيرا أن أقف بنفسي وأراقب حملات كثيرة كان الهدف منها مصلحة العزبة ـ كل العزبة ـ مثل حملة مشروع المياه والحنفيات التى تملأ الآن كل البيوتات بمياه نظيفة ..ثم حملة الكهرباء التى حولت العزبة إلى مكان يضيء بعد أن كانت لمبة الناظر الوحيدة التى تضيء فى شهر رمضان فى كل عام..

إنى أحترم عزبة المهندس- كما أحترم الآباء والأجداد الذين تركوا لنا سلوكياتهم التي تعتبر مثالا يحتذى فى العزبة ولم يفكر أحد فى مصالحه الشخصية أو تحويل «العام» إلى «خاص» وسبوبة من أجل أن تتحقق مصالح ضيقة..

أقول الحق لقد كنت فخورا بعزبة المهندس، وبأهلها الطيبين، وبشبابها الواعد..

أ- العزبة التى فى خاطرى:

.. تقع عزبتى (عزبة المهندس) فى وسط مجموعة من العزب وتتبع إداريا قرية الصبرية التى تبتعد عنها بمسافة ٢ كيلو مترا.. إلى جانب عزبة الجندى.. والفشاشة واللوزى

..أما قرية أبو جلال فهى تقع إلي الجنوب.. وتتبع إداريا مركز شربين الذى يبعد عنها بمسافة ١٠ كيلو مترات.

وأشهد أن أول مرة عرفت فيها أن عزبتى- عزبة المهندس تسمى المهندس.. عندما كنت- ولا أدرى كيف- عند أختى- يرحمها الله- فى الصبرية فكان زوجها يداعبنى قائلا سوف نذهب إلى عزبة «المهندس».. وكنت أتساءل بينى وبين نفسى: ما علاقة أن أعود إلى عزبتى وبين اسم المهندس الذى يقوله زوج أختى- يرحمه الله -ثم علمت لاحقا أن عزبتى تسمى المهندس.

وعندما شـــببت عن الطوق وعملت بالأهرام تبين لى أن هناك أكثر من عزبة تســـمى عزبة المهندس فى جميع أنحاء مصـــر.. ومنها عزبة يملكها أحد ملاك الأراضـــى الذى تربطه علاقة مصـــاهرة مع أحد العاملين بالأهرام ثم علمنا أن هناك عزبة «المهندس» من أعمال محافظة الإسكندرية وأخرى من أعمال «طوخ» بمحافظة القليوبية..

لكن تبقى عزبتى- عزبة المهندس- مركز شـــربين- دقهلية هى القرية الأم ..فكل ســـكانها أو أغلبهم يمتلكون أراضـــى زراعية.. وأذكر أن أصـــحاب العزب الأخرى كانوا ينظرون إلى عزبة المهندس بأنها عزبة الملاّك أو عزبة أصـــحاب الأطيان..

وأشـهد أن هذه الصـفة قد أثرت كثيرا على مسـتوى عزبتنا بين العزب الأخرى!

.. لم يكن قد لحق أبناؤها بمراحل التعليم المختلفة.. ولم يكن يسبق جيلنا- جيل الرواد - سوى عدة أفراد. أبرزهم عبد الخالق الخضرجى الذى كان مشرفاً زراعيا ثم عاطف وطفة الذى كان محاسـبا.. وعبد اللطيف وطفة وكان يعمل أيضـاً فى مضـرب للأرز ثم عبد الجليل وطفة الذى كان يعمل فى أحد مصـــانع الإسـكندرية وعرفت بعد ذلك أنهم لم يحصـلوا إلا على شـهادة الثانوية العامة التى كانت تسمى التوجيهية.

وأشـــهد أننى كانت لى صـــلة من نوع ما بهم جميعا.. فعبد الخـالق كـان يتطوع بـإعطـائنـا مع ابن خـالتى العميد عـاطف عوف دروسـا فى الرياضـيات أما الآخرون فكانوا من أقاربى.. وأذكر أنهم كانوا من صفوة القوم فى العزبة..

.. وقام صـــاحب العزبة (الكونت عزيز دى صـــعب) ببناء مدرســة أوكل مهمتها إلى أحد مشــايخ بلدة كفر الترعة القديم.. الذى كان يدرس لنا الحســـاب والقراءة والعلوم.. أى التعليم العلمانى دون أن يصـــرّ على تعليمنا القرآن الكريم على عادة هذا الزمان.

وأذكر أننا كنا نجلس على «شـوال» ونضـع أمامنا زجاجة «من الماء» ثم بعد فترة طلبنا من (الكونت عزيز دى صــعب) أن يضع فى المدرسة تخت خشبية ففعل ولكن بعد فترة..

وأغلق ناظر العزبة هذه المدرســة – ســامحه الله - بعد أن فتحت مدرسة الصبرية الابتدائية المشتركة أبوابها لنا.. وأذكر أنها بدأت بفصلين فصل أول وفصل ثان..

وكانت عزبة المهندس من العزب الأساسية فيها.. ومعلوم أن المدرسة كانت- فى الأصل- منزل تابع لشيخ الغفر «أحمد شوشة» لكنه فضل أن يؤجرها لوزارة التربية والتعليم لكى يكون فى قرية الصبرية مدرسة ضمن المشروع الذى أسسه عبد الناصر وقتئذ وهو: مدرسة ابتدائية كل ثلاثة أيام!

وكانت الإدارة للسيدة قدرية الخشخانى والتدريس لأبله زيزى وأبله نفيسة ولابد أن أنهن من المؤسسات لهذه المدرسة الوليدة.

وفى تطور كان لابد أن يحدث أنشأت وزارة التربية التعليم مدرسة خاصة فى عزبة المهندس.. عمل فيها موظفون من العزبة من ذوى الشهادات المتوسطة فحولوها إلى «سبوبة» وهذه هى كارثة أنصاف المتعلمين فى كل عصر.. ففى غيبة من الزمن كاد أحد أبناء العزبة الحاصلين على دبلوم تجارة يصبح ناظراً للمدرسة.. ناهيك عن أن موظفاً إداريا حوّل المدرسة إلى ثكنة عائلية: فهو يعمل فيها إلى جانب زوجته وابنته! وابن عمه وزوجته!

والخطير فى الأمر أنه يعتبر المدرسة من ممتلكاته الخاصة فسمح بتنسيق مع شخص آخر من العزبة أن يأخذ هذه الأرض (مترين أو أكثر من الأرض) التابعة للمدرسة لحسابه الخاص.. والغريب أن أهل العزبة صامتون اللهم إلا كاتب هذه السطور أقام الدنيا ولم يقعدها.. لهذه «السرقة المشروعة» وجند كثيرون من شباب العزبة.. وكشف الألاعيب التى تمارس..

ولا أنسى أن أقول أن هذا الشخص الذى سرق أرض العزبة لحسابه الخاص- وحساب أخوته- لم نسمع عن بناء أو أرض قد تبرع بها!!

.. وأذكر جيداً أنه اتصـــل بى وكان يريد أن تلتحق زوجته بالتمثيل التجارى فأعطيته مذكرات لى تتحدث عن العولمة.. وكنت أقوم بتدريســها في جامعة دمياط.. كذلك قفز إلى عربتى واتصل برئيسه فى العمل وجعلنى أتحدث معه حول إمكانية أن يدخل ضمن الأفواج التى تسافر لشراء القمح.. وأعترف أنى قلت للرجل أن فلان ابن خالتى وكتبت مقالاً عن «المرفق» الذى يعمل فيه فى جريدة «الأحرار» التى كنت أكتب فيها إلى جانب «الأهرام» وقتئذ وهكذا أنتهز الفرصـــة وأقول إن أخطر شـــيء أن يتصـــدى هؤلاء الأنانيون للعمل العام.. إن معشـــر المتعلمين أكثر جهلا من الجهلـة أنفســـهم.. فـأذكر من خلال وثائق أختزنها معى أن هذا الشخص لكى يدفن أسلاك الكهرباء دفع مبلغاً من المال على مبلغ آخر كان من حق أهل العزبة.. وعندما علم شباب العزبة بهذه الواقعة لم يفعلوا أى شيء- وهذا ما يجعلنى أذكر أن الآباء والأجداد كانوا أكثر حرصـــا على العزبة من أحفادهم..!

***

.. كنت قد رجعت من باريس فى منتصف العام ١٩٩٨ أى بعد ثمانية عشـــر عاما بالتمام والكمال وبعد أن حصـــلت على دكتوراه الدولة في الفلسـفة السـياسـية.. وانشغلت في أمرين.. «الأهرام» التى كنت أعمل فيها خبيرا فى العلاقات السـياسـية الدولية و«الجامعة» التي كنت وما زلت أدرّس فيها وكان لى أكثر من ثلاثين كتـابـا فى الفكر والفلســـفـة الســـيـاســـيـة والاستراتيجيا.

وزرت يوماً بيت الحاج عطية حسن- صـديقى وابن عزبة المهندس والذى له مكانة خاصـــة فى قلبى.. وقال لى عبر الهاتف أن العزبة فى حاجة إلى مســـاعدتك والناس فى قرية الصبرية يعطون لهم ألف رغيف كل يومين..

ويســـيئون معاملة موفد العزبة إلى هناك.. وبعد أن تفاعلت معه وأخذنا نعطي ونأخذ في الكلام.. كتبت مقالة فى الأهرام المســائى.. فرد عليها محافظ الدقهلية اللواء ســمير ســلام الذى اقترح أن أؤسس جمعية على أن يقوم بالموافقة على إنشاء فرن تابع لها.. وفعلا قمت بذلك.. وأشـــهرت الجمعية تحت رقم ١٨٦٣ لعام ٢٠١٠ وتبرع المهندس أحمد اللاوندى بمبلغ ٥٠ ألف جنيه وقام السيد محمد الدكروري- من أبناء عزبة الفشاشة المجاورة باســتلام المبلغ من الجمعية واشــترى بالفعل معدات الفرن كاملة كما ساهمت الجمعية فى إنشاء مبنى الفرن بعد أن حدد محمد الدكرورى المكان الذى سوف يقام فيه مبنى الفرن.

وجاء اللواء ســمير ســلام وافتتح في يوم مشــهود الجمعية المختصــة بعمل الفرن إلى جانب تحفيظ القرآن والقوافل الطبية ومعمل التحاليل واقترح أحدهم وهو منصـــور العراقى عمل حضانة إسلامية.

لكن بعد أن خصـــص المحافظ ســـتة الاف رغيف للعزبة وافق على إضــــافــة ألف رغيف أخرى.. طمع في الفرن الطامعون.. وأنفق صاحب لحية ما أنزل الله بها من سلطان مع قريب له يعتبر (مدرســة في الأنانية) على إقناعى بعمل توكيل له في رأس البر.. فوافقت أن يكون المســئول ماليا وإداريا.. وقمت بتناول الطعام معه على حسابى طبعا.. بعد التوكيل!

.. وأســتطيع أن أقوم بالغاء التوكيل لولا بعض الناس الذين اتصــلوا بى من العزبة.. وأقترحوا أن يراجع أحد زملائى وهو المهندس محمود هلال الحســـابات.. ويؤســـفنى أن أقول أن صاحب اللحية أخذ يتصرف مع العزبة وكأن الفرن من ملكيته الخاصة.

اتجهت الجمعية بعد ذلك إلى إنشاء مسجد اللاوندى.. ولم تطلب من أهل العزبة جنيها واحداً.. فقط قامت بتكلفة الإنشاء وحدها لأن المسجد لله.. وقمنا بافتتاحه عندما حضره الشيخ د. صلاح الجمل والعمدة أبو عيش فى يوم مشهود..

وإلى جانب أمور الجمعية قمت بعمل حضانة إسلامية إلى جانب التحاليل والقوافل الطبية بالتعاون مع بعض من أبناء عزبة المهندس وهو الحاج حمزة شويقة وأذكر أننى عندما اكتشفت أن (أنصاف المتعلمين انطلقوا فى العزبة يقودون «قوافل الجهل» ولا يبحثون إلا عن مصالحهم الخاصة ولا أثر لهم فى أى مشروعات خيرية تحتاجها العزبة اليوم قبل غدا)... حددت موعدا مع شباب العزبة.. وكشفت بالصوت والصورة ألاعيب هؤلاء.. وقلت للشباب أنتم أمناء على العزبة التى سلمها الجيل القديم الآباء والأجداد.. وعليكم أن تتقدموا الصفوف والجميع وراءكم.. فزمان القائد قد انتهى.. وفضحت أسلوب «السبوبة» الذى يحكم عددا من صغار الموظفين فى المدرسة.. وأوضحت أن هناك خطة حكومية لتجديد المحوّل الكهربائى.. لأن التجديد سيشمل قرية الصبرية- وبالتالى لا فضل لأى إنسان فى تجديد المحول..فقط من يريد أن يقود المسيرة فليتبرع من ماله الخاص وإلا فعليه أن يتوارى نهائيا عن العيون..

المؤسف أن بعض الشباب تفتنهم المظاهر وينوون فى غمرة ذلك معرفة من يتبرع ومن يدفع.. ويغضون الطرف عن استيلاء نفر من صغار الموظفين على أراضى المدرسة.. التى هى أصلا مملوكة للعزبة..

ولأننى أؤمن بأن الكتاب بما يحويه من أفكار رائدة هو سر التغيير الذى يمكن أن يحدث فى المجتمع.. وقد خبرت ذلك بنفسى فحياتى كلها كتب فى كتب.. بل وضعت كتابا حضر ندوة كبيرة نُظمت له فى معرض الكتاب أحد صغار موظفى العزبة لكن ما الحيلة فى أن أحداً لا يفهم!

أحمد الله أننى أقنعت وزير الثقافة ورئيس الهيئة العامة للكتاب وإدارة المكتبات بمركز شربين بتخصيص مكان بمبنى جمعية «رعاية» ليكون مكتبة عامة.. وجاء عدد كبير من الضيوف وفرقة شعبية لافتتاح المكتبة وظل الحال على ما هو عليه فلم يدخلها إلا نفر قليل والسبب أن الكتاب لا يشغل أية مساحة فى رؤوس أبناء القرية..

وأذكر أن ناظر المدرسة عندما تحدثت إليه أجاب بأنه لا يهتم بالمكتبات لا من قريب ولا من بعيد..!

السبب الثانى أن أحداً فى المدرسة لا يعرف ماذا يعنى الكتاب أو البحث العلمى وقد حدثنى أحد أولياء الأمور بأن ابنه أصبح فى السنة الثانية الإعدادية ولا يعرف أن يكتب اسمه..!

إذن المسألة هى أن المكتبة قد فتحت فى زمن ليس زمن الكتاب على الأقل من جانب التلاميذ فى العزبة..

.. وكنت أتحرق شوقا لأن أجد تلميذا يحب الكتاب.. بل فكرت فى عمل لجنة للأدب والشعر.. فلم أجد من يتحمس لهذه الفكرة لأن المدرسة خالية، ومما يؤسف له أن المدرسة نظريا تهتم بالشعر والأدب لكن مسئولية هذه اللجنة تقع على عاتق إنسان نصف متعلم لا يعرف ماذا يعنى الأدب.. ناهيك عن أن المدرسة خاوية من أى إنسان له ذائقة أدبية..

.. الذى يحز فى نفس أى إنسـان أن المدرسـة من المفترض فيها أن تكون بؤرة تنوير.. فإذا بها تصبح بؤرة تجهيل والسبب الرئيسى أنها تأوى أنصاف المتعلمين وتعطيهم مسئوليات أكبر مما يسـتحقون أو يحلمون- المهم الدروس الخصـوصـية التى تُعطى على عينك يا تاجر فى منزل إحدى المدرسات..!

***

باختصـار شـديد لا أمل فى عزبتى- عزبة المهندس – لأن كبار السـن والعقل قد انزووا.. وتركوا القرية للشـباب الذى بلا خبرة فضاع كل شيء..

حدثنى أحدهم قال: لقد اعتاد أهل القرية على من يأتي من الخارج فيبنى جامع ومئذنة ثم مدرسـة وأخيرا.. يتبرع بعشـرة أفدنة للمقابر.. ثم يأتي- زملاء أحد شـهداء العزبة.. وهو عادل الهلالى من الشرقية فيبنون صرحا ويرفعون صورة للشـهيد.. باختصـــار لقد اعتادوا أن يأتى آخرون لكى ينفذون ما كان ينبغى هم أن ينفذوه

والسـبب فى رأيي يعود إلى ثقافة الناس .. فلا أهمية بتبرع ولا دور للعقل.. ولا تفكير فى مسـتقبل الأعمال الخيريـة.. والمتعلمون يسـيرون للأسـف الشـديد فى هذا الاتجاه.. يريدون أن يحصـلوا على امتيازات شـخصـية.. وتحويل «العام» إلى «خاص».. ومثال أرض المدرسة خير دليل على ذلك..!

أولاً-«عزبة المهندس» .. قتلت الثقافة!

.. لن ندخل في أدبيات تعريف المثقف الثقافة.. وقد نكتفي بالقول أن المثقف هو الذي يعرف شيئا عن كل شيء!

العجيب أن هذا التعريف رغم عموميته وشــموله إلا أنه غير موجود بالعزبة.. فالكل يلهث وراء المادة.. أما الثقافة فلا تعني أي شيء بالنسبة للسكان والأهل، والأقارب!!

وقد يقول قائل: أنت تبحث عن الذهب في غير مكانه.. فأغلبية سكان العزبة من المزارعين الذين عرفوا الفلاحة والزراعة بالوراثة.! وأقول إنني لا أبحث عن الثقافة إلا بين الدارســين ومن حصــلوا على قدر من تعليم ســواء الابتدائي أو الثانوي أو الجامعي..

والمؤسف أن هؤلاء هم أشر أنواع البشر لأنهم عاشوا على عكس ما كان يقول أحمد لطفي السيد أستاذ الجيل.. فبدلا من أن تنساب منهم القيم فتؤثر في أهلهم وذويهم من

أبناء العزبة.. حدث العكس تماما.. فأهل العزبة هم الذين أثّروا فيهم.. وأبداً لم يتزحزحوا عن أفكارهم وشـــدوا إليها هؤلاء الدارسين أنصاف المتعلمين! فكأن الجهل أصبح مُضاعفا!

وإذا حاولت أن تغيّر من هذه الأفكار وتقوم بالفصـــل بين الأهل والعشـــيرة وهؤلاء المتعلمين.. واقتربت من المعادلات الاجتماعية الحاكمة.. فأنت من وجهة نظر الجميع قد أتيت شيئاً نكراً!

فهؤلاء يســـتفيدون من هذه المعادلات ولا يريدونها –بأي حال- أن تتغير.. مهما كانت الأسباب وجيهة ومقبولة!

وعلى كل حال هذا ما عشته مع هؤلاء القوم سنوات عدداً.. فالكل في جهله سعيد؟

وفي هذا الشأن سألت أحد أنصاف المتعلمين وهو موظف إداري في المدرسة عن دوره في اكتشاف المواهب.. فالمؤكد أن هناك تلاميذ يحبون الأدب والشعر والقصة والكتابة بكافة أشكالها.. وقلت أنني مستعد أن أساهم في عمل جمعيات أدبية وندوات وتقديم نصائح لهؤلاء الموهوبين.. فقط طلبت منه أن نبحث عنهم ونفسح لهم المجال للإبداع الصغير.. فلم أجد منه سوى كل زهد وانصراف.. وتركني وحدي لا أجد من يمد لي يده.. فانتهزت فرصة الجلوس في إحدى المرات.. مع ناظر المدرسة فوجدته مشغولا بالإداريات، وإظهار أنه درس اللغة الإنجليزية يوما.. والتحدث ببعض كلماتها.. وكفى الله المؤمنين شر القتال.

تركت الرجل .. وسرت لا ألوي على شيء.. فقط توكلت واستعذت بالله من الشيطان الرجيم..!

أقول الحق لقد تبين لي أنه لا أمل في شيء.. فالكل سادر في غيّه.. فقط يفرض المدرسون الدروس الخصوصية على التلاميذ فرضاً.. ومن يتقاعس .. فالويل والثبور.. وعظائم الأمور!!

هنا تذكرت ما سبق أن قرأته عن الراحل الدكتور يوسف إدريس (ملك القصة القصيرة في العالم العربي) من أنه بنى بيتا صغيرا في بلدته بلبيس – شرقية لكي يذهب إليه مرة كل شهر.. وبقي فيه بالفعل عدة أيام مع زوجته وأولاده.. ثم تفرغ كتابة بعض قصصه القصيرة وانتهز فرصة حصوله على بعض الأموال بسبب جائزة أدبية كان قد حصل عليها .. واختار حارسا للمنزل الريفى من أهل البلدة.. وكان سعيداً بالأجواء الريفية التي كان ينعم بها في كل مرة يأتي فيها إلى الشرقية.

وذات يوم تحدث معه الحارس في أمر إلحاق ابنه الحاصل على شــهادة جامعية في الزراعة في عمل يتناســب معه، وتحمس د. يوســف إدريس وتحدث بطريق المصــادفة مع شــخص يعرفه في هذا المجال.. وتحقق ما كان يريد الأب الحارس.. وفي الأســبوع التالي جاء د. يوســف إدريس إلى منزله الريفي فوجد عشــرات من أبناء بلبيس يجلســون تحت الأشجار المحيطة به.. وعندما هبط من سيارته تحلّق الناس من حوله.. وكان بيد كل منهم طلب وظيفة أسوة بابن الحارس!

كظم د. يوســف إدريس غيظه وعرف أن الحارس ســرّب الخبر فجاء أبناء البلدة من كل فج عميق.. وتمنى الرجل أن يكون صاحب قرار ناجز... ليجد لكل هؤلاء وظائف تناسبهم؟!

لكن اعتذر في لطف بعد أن أخذ طلباتهم ووعدهم بأن يبذل قصارى جهده!!

وكانت هذه الحكاية ســببا في أن يرحل د. يوســف إدريس ويزهد في منزله الريفي وكان يضرب كفاً بكف ويقول:

لماذا يصر أبناء بلدتي على أن اجتذابى إلى أسفل؟ لماذا لا يتركوني مع الإبداع والفن والكتابة ويصــرون على أن أهبط لأمخر العباب الأسود معهم..

أنا لست وزيراً للقوى العاملة.. ولست رئيسا للوزراء.. فأنا فقط قاص وأديب. بعض القصــص التي لا يقرأها هؤلاء ولا يعرفونها.. فلماذا الإصرار على إفساد أجوائي الريفية؟

ورحل الرجل نهائيا وترك منزله في بلبيس خاويا إلا من بعض ذكريات لدى الخاصة..

وجاء في وقت لاحق بعض أســاتذة الجامعة الذين يعرفون قدره ووزنـه ومكانتـه وتحول المنزل إلى مكتبـة تحمل اســم يوسف إدريس وتحول أمرها بعد ذلك إلى وزارة الثقافة!

شــيء كهذا حدث معي.. وســوف يحدث مع آخرين لأن الريف المصــري قد تحول.. وضــمن تحولاته أنه بات يطرد الســلعة الجيدة لصــالح الســلعة الرديئة.. وتنكر لكل القيّم التى تربينا عليها!

ثانياً: ٣ أسئلة تبحث عن إجابة!

.. لكل سؤال حكاية محفورة في ضمير الزمن.. لكن آلمني أن أحدا لم يجرؤ أن يثيرها.. أو يتكبد مشاق وعنت البحث عن إجابة من نوع ما لهذه الحكايات.

- الحكاية الأولى تدور حول سلوك الكهرباء التي كانت في الهواء بحيث تحول دون أن يقف أحد سكان القرية في البلكونة المعمورة!! وعندما ذهب وسأل عن تكلفة نقل هذه السلوك.. وجدها مرتفعة جداً.

- فبلغ منه اليأس كل مبلغ.. ثم هداه تفكيره إلى دفن هذه السلوك في الأرض ليستفيد من ذلك... ويستطيع أن يقف في البلكونة دون إزعاج.. وليستفيد شقيقه الذي بني في أرض زراعية تابعة للإصلاح الزراعي حيث يجد الكهرباء أمام منزله الجديد..

وبعد أن هداه تفكيره ذهب لرئيس مجلس المدينة ثم ذهب إلى محافظة الدقهلية يطلب تحويل هذه السلوك الكهربية بحيث تدفن في الأرض..

وكانت المفاجأة الثانية أن هذه العملية – في حال حدوثها- تحتاج أمرين: أولاً: أن يتم الطلب باسم العزبة بتحويل السلوك لتدفن في الأرض.

والثاني أن هذه العملية تتكلف نحو ٥٠ ألف جنيه.. وبالنسبة للأمر الأول قام صديقنا إياه بتزوير إمضاءات العزبة مؤكدا أن العزبة كلها تريد دفن السلوك في الأرض..

أما بالنسبة للأمر الثاني فقد علم من رئيس المجلس المحلي أن العزبة من حقها ٣٥ ألف جنيه مُخصصة لردم الترع..

وحدثني أحد أنصــاف المتعلمين في العزبة بأنهم بصــدد ردم الترعة المجاورة للمسجد القديم لاستغلال هذه الأموال المخصصة لذلك..

ثم فجأة فكر صـــاحبنا إياه بتحويل هذا المبلغ من «الردم» إلى الكهربــاء.. ولم تكن هنــاك مشــكلــة فلقـد قـام بتزوير الإمضاءات وتم بالفعل تحويل المبلغ.

الخطوة الثالثة: دفع ١٥ ألف جنيه فوق الــــ٣٥ الخاصــة بالعزبة لدفن سلوك الكهرباء.

السؤال الآن هو/ التالي:

لقد عرف أهل العزبة بأن المصــلحة العامة قد تحولت إلى مصلحة شخصية زورا وبهتانا.

وأن مبلغ الــ ٣٥ ألف جنيه كانت مُخصصة للعزبة فأخذها صاحبنا لحسابه الخاص..

مرة أخرى السؤال هو التالي:

- لمـاذا لم يطلـب أهـل العزبـة أموالهم.. ولمـاذا لم يـدفع صاحبنا الـ٣٥ ألف جنيه للقرية..
- كيف اســتمر صــاحبنا أن يأخذ حقا ليس من حقه دون أن يرتدع ويخاف الله؟
- ثم أين رجـال وشـــبـاب العزبـة من هذه الســـرقة غير المشروعة؟!

- الحكاية الثانية:

.. أن جمعية «رعاية للأعمال الخيرية» التي تشكلت عام ٢٠١٠ تحت رقم ١٣١٨ .. وجاء محافظ القاهرة لتدشينها.. طالبنا أن نبني فرنا بالعزبة بعد أن عانى مندوبها من الحصول على حوالي ألف رغيف كل يومين من قرية مجاورة..

وأذكر أن المحافظ قد وافق وتم «بناء» الفرن ودفعت فيه الجمعية مع أبناء القرية.. ثم جاءت بالمعدات على نفقتها الخاصة.

وقام أمين عام الجمعية (الحاج نشأت) (والأستاذ محمد الدكروري) بالإشراف على تركيب المعدات. وتناوب نحو ثلاثة على إدارة الفرن.. وانتهت إلى أن أحد السلفيين الذي أكد أمام الناس جميعا أنه سوف يقوم بتوزيع الخبز مجاناً.. ولوجه الله لكنه حنث فى وعده!!.

فرحنا جميعا.. لأن المشروع خيري بالدرجة الأولى.

بعد عدة أشهر طلب هذا الملتحي مبلغ ألف جنيه فوافق أهل القرية على مضض.. ثم جاء بأحد أنصاف المتعلمين ليقوم بتوزيع الخبز بمبلغ ٦٠٠ جنيه دون أن يسأل أحد.. وبات يتصرف كأن الفرن من ملكيته الخاصة.. (كان هذا طوال ثلاث سنوات وحتى طُبقت المنظومة الجديدة!)

وطلبنا كان الآتي: أن يعرف أهل العزبة حسابهم الخاص بالفرن.. كم يأتي إليه.. وكم ينفق في سبيله وأن يُعلق كشف للحساب على واجهة الفرن ليعرف الكبير والصغير حسابه وحساب الفرن.

طبعا لم يحدث ذلك.. لأن شيئاً غامضاً يحدث في هذا الفرن المسكين!

كتبنا بعض الأسماء على قطعة خاصة لكي يشرفوا على الفرن لكن هذه الرخامة لم تمض ليلتها وسرقها أحدهم وضاعت .. واعترف أحد من سرقوها بذلك..

وما لا يعرفه الكثيرون أن ستة شكاير دقيق وزيت فأصبحت سبعة تأتي لصالح القرية يوميا.. وبعد المنظومة الجديدة أصبحت الحصة ثماني شكاير!

الغريب إنتاج يزيد الخبز عما هو مقرر.. ويُباع ولا أحد في العزبة الميمونة يتحرك؟

السؤال الثاني: أين رجال وشباب العزبة.. بينما أحوالهم تشهب، ويشتري بها الآخرون سيارات وعربات ولم أسمع صوتا واحدا من العزبة يقول: من أين لك هذا؟!

- ما هو سبب هذا الصمت؟
- أليس من بينهم من يسأل عن حسابات الفرن؟

الحكاية الثالثة:

تتعلق بأرض المدرسة.. وكان قد تبرع بها صاحبها من الجسر للجسر لكن أحد المجاورين للمدرسة فتح شارعاً ليس من حقه.. وأخذ أرضا دفع أهل العزبة من جيوبهم لشرائها لتكون مدرسة.. لكن (صاحبنا إياه) فتح شارعاً بجوار بيته.. وأخذ من هذه الأرض لحسابه الخاص.. ولم يتكلم أحداً!

هناك بعض الأصوات التي تقول (لا).. لكن أصوات خافتة لا يسمعها أحد..

السـؤال الآتي: أين الذين يبكون على مصـلحة العزبة من هذه السرقة؟

لماذا لا يبنون سـورا على حدود المدرسـة- ويمنعون هذه الجريمة من الحدوث؟

.. المؤسـف أن الناظر والمدرسـين.. لا يهتمون بالأمر.. وأهل العزبة.. في شغل عنها.

والسرقات تتوالى.. والبقية تأتي!

●●●

هذه الأسئلة الثلاثة تبحث عن إجابة..

ينادي ابن من أبناء العزبة وهو الحاج حمزة شويقة باحترام حق العزبة ويتسـاءل: أين حقها فى الماء والكهرباء وأرض المدرسة؟

ثالثاً: مكتبة تحارب الجهل!

.. لأنني أؤمن أن الكتاب هو خلاصة حياة، وخبرة، وهو سلم الارتقاء إلى أعلى عليين.. وهو الذي يمهد لكل تغيير.. ثم أنه عماد التعليم، والتعلم.. فلولا كتابات فولتير – الفيلسوف الفرنسي المعروف لما قامت الثورة الفرنسية العظيمة.. ولولا ما كتبه أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد لما قرأه واقتنع به جمال عبد الناصر مفجر ثورة ١٩٥٢..

.. ثم لولا كتابات نفر من أبناء مصر لما شهدنا ثورة ٢٥ يناير و ٣٠ يونيو.. ولولا الكتب بشتى أنواعها لما كان هناك عباس العقاد ولا طه حسين ولا توفيق الحكيم الذي يُعرف بثالوث الثقافة المصرية المقدس.. وأذكر أني كنت أقرأ لبرنارد شو الذي كان يقول عن نفسه:

- أقرأ ساعة ثم أتأمل ثلاث ساعات فيما قرأت. وعباس العقاد الذي كان يردد أنه يجب أن يقرأ في التاريخ ويود لو يتاح له أن يقرأ ما حدث قبل آلاف السنين.. ثم ولعه في نفس الوقت بالمستقبليات التي كان يقرأ فيها بنهم وهو الذي لم يحصل على شهادة عالية قط.

.. ولا أنس الفيلسوف المصري ذكي نجيب محمود الذي فقد عينيه من كثرة القراءة وأبدع لنا فلسفة.. أين منها هؤلاء المتطفلين وأنصاف المتعلمين..

.. لهذا السبب آمنت بالكتاب. وآمنت بدور المكتبة في التنوير. واستعنت بالله وأسست المكتبة.. مكتبة اللاوندى الثقافية.

وأقنعت وزير الثقافة ثم رئيس هيئة قصـــور الثقافة وأتينا بفرقة من فرق الهيئة ومئات الكتب.. وافتتحنا المكتبة بحضـور الشـــاعر سـعد عبد الرحمن رئيس الهيئة.. ومحمد عبد الحافظ رئيس الإقليم وعدد كبير من رموز الثقافة في الدقهلية ودمياط وكفر الشـــيخ والزقازيق، وقد شـــهد هؤلاء بأنهم لم يزوروا شربين المدينة وإنما رحبوا بزيارة عزبة المهندس.. ولم يمنعهم المطر الذي حوّل الدنيا في العزبة إلى أوحال.. وقام يتابع ذلك بنفســه محافظ الدقهلية وقتذاك.. تأسـســت – بالفعل – المكتبة.. وأشـرف عليها موظف رسـمي من وزارة الثقافة يحصـل على راتبه منها..

المؤسف أن الجهل وهو عدو الثقافة في كل عصر ومكان.. ظل مخيما على الرؤوس.. فلم يدخل المكتبة.. ولم يحاول طفل صـغير أو صـبي قد شـب عن الطوق يحب القراءة أو يسـتعير كتابا أو أن ينفض عن رأسه هذا الجهل الذي خيّم على النفوس.. أما الكبار من أنصـاف المتعلمين فقد ابتعدوا عن الكتب.. لماذا؟ لأن معادلات الجهل لابد أن تبقى.. وأحدهم لا هم له ســوى أن تعطي زوجته دروساً.. وابنته تعطي دروسا أخرى خصوصية وكذلك زوجة أحد أقربائه..الجهل هنا –في المدرســة- هو سـيد الموقف..

والتلاميذ لا ينجحون ســوى بهذه المعادلات الفاســـدة.. وبالتالي.. فقيم تفيد القراءة..

أما النصـف متعلم الآخر فلا نشــاط له سـوى التكالب على جمع المـادة ونســـي أنـه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبـال طولاً.. وأن الله –ســبحانه- يراقب الجميع.. فتمادى في فســاده ولم يقرأ في حياته كتابا واحدا..

ولم يأت المكتبة إلا نفر قليل من عزبة أبو جلال.. وأيضا من عزبة اللوزي.. والعزب المجاورة مثل الفشاشة والسيد محمد.. وعندما حدثني موظف المكتبة مندهشاً.. وقال لي: الجهل قد سيطر على كل شيء.. ومددّ رجليه.. ولم يفكر إلا القلة من أهل العزبة في أن يزيلوا ما خيم منه على العقول..

وبمناسبة العقول، فكل أجهزة الناس البيولوجية تعمل إلا الرأس والعقل.. وهذا ما يبدو من السلوكيات! ولقد سألت أحد كبار القوم وهو الحاج إبراهيم شوشة فقال لي إنه لا يذهب للقرية إلا للمآتم لأنه يرى أن واجبه يحتم عليه الذهاب.. أو للصلاة في المسجد القريب من بيته..!

والشيء نفسه يحدث مع الحاج المحترم عوض العراقى الذي أعتبره (مع الحاج إبراهيم شوشة) المرجعية التي أعود إليها في كل وقت وحين..

.. وظلت المكتبة سنوات عددا.. لكن لم يزرها إلا القليلون من القرى المجاورة: لهذا السبب.. ولأن الكل يخاصم الكتاب سيظل الجهل قريبا لهم.. ومعششا في الرؤوس.. أما أنصاف المتعلمين فلقد ظلوا سعداء وأوفياء للجهل الذي يضربون المثل فيه..

وسوف تندم أجيال اليوم عندما يكبرون.. والأجيال القادمة عندما تعرف بأن عزبتهم كان فيها مكتبة وأن رئيس هيئة قصور الثقافة قد افتتحها ولم يأبه بالمطر والبرد..لكن جيل اليوم لم يستثمر ذلك.. وظل بعيداً عنها سعيداً بجهله وفساده ولله الأمر من قبل ومن بعد؟

رابعاً : العزبة.. والعزب المجاورة!

تقع عزبة المهندس وسط عدد من القرى والعزب التي تحيط بها كالقمر الذي يتوسط مجموعة من النجوم..

فأقرب قرية هي الصبرية .. وهي – حسب توزيع المجلس المحلي هي القرية الكبرى التى يتبع لها مجموعة من العزب.. أبرزها عزبة المهندس.. ورغم أنها كبيرة عن الصبرية.. وسكانها –كما يقال- ملاك لأراضي وليسوا مستأجرين.. إلا أن الصبرية تقع على خطين مهمين الأول هو شريط القطار الذي يصل بين القاهرة ودمياط.. ثم الثاني الطريق السريع الذي يربط المنصورة وبنها بدمياط والقاهرة.. ثم هناك سبب آخر وهو أن الصبرية.. كقرية أكثر التصاقا بالمدينة من عزبة المهندس التي تقع معزولة عن هذه الطرق السريعة.. ويميز الصبرية – القرية الأم – أن التعليم فيها أوسع و أسبق.. ففيها مثلا من أبنائها الذين يستوطنوها طبيبة. أما عزبة المهندس فلا يوجد فيها طبيبة..

أو مهندسة أو حتى محاسب في بنك.. أما قرية الصبرية والعزب المجاورة ففيها هذه التخصصات..

وقد يحلو للبعض أن يتحدث عن عزبة المهندس قائلاً أن فيها مهندسين روّاد مثل المهندس أحمد اللاوندي.. وزوجته المهندسة منال اللاوندي.. وهذا غير جميع الآن فالرجل وزوجته استوطنا السعودية وبنيا فيلتهما في دمياط الجديدة.. يودان أن ينهيا حياتهما هناك.. وقد يقال أن أولادهما يتبعان العزبة وهذا غير صحيح.. فلا هم – وهم في الأصل أطباء ومهندسون – ولدوا فى غير العزبة.. وتعلموا في مدارس وجامعات شربين والمنصورة.. ومعلوم أن من درس الصيدلة – وهذا شيء مهم – نزحوا من عزبة مجاورة هى عزبة اللوزي وهم أولاد السنباطي..

وهذا معناه أن عزبة المهندس الميمونة لم تقم بتخريج أطباء أو مهندسين أو رجال بنوك أو اقتصاديين.. وحسبها أن خرجت لنا شهادات جامعية في التجارة والزراعة.. لا يجدون عملاً ومن وجد منهم عملاً.. فهو مشكوك في ذمته. والله أعلم! ولن أنسى أن أقول إن عزبة المهندس لا يوجد فيها إلا جيل الرواد.. لكنهم لا يعترفون بذلك.. وأضف هنا بعض الدبلومات وهي كثيرة. والتي أسميها.. شهادة محو الأمية في زماننا لأن هذه الدبلومات مثل الهم على القلب وقد وصم الله أهل العزبة بعشرات من هذه الشهادة التي لا تساوي الحبر المكتوبة به.. أقول ذلك وفي ذهني الثقافة والمثقفين والكتب التي خاصمها الجميع!! –فالصبرية – القرية –الأم- كانت دائما في المقدمة بحكم الموقع أولاً – وبحكم التوزيع المحلي.. فكان عنوان عزبة المهندس – وما زال. أنها تابعة للصبرية.. وهذا واقع وصحيح!

ولا ينس «جيل الرواد» أن الصبرية بها المدرسة التي تعلم فيها.. وتربطه علاقات صداقة مع عدد من المتعلمين من أبنائها.. حيث كانوا زملاء لأفراد جيل الرواد.. وهم في معظمهم أطباء أو طبيبات ومهندسين ومحامين ورجال قضاء ومحامين (يمارسون المهنة) ورجال بنوك.. ومدرسين.. بل ورجال أعمال مستثمرين! أمثال «محمد عبد الرحيم وأ. صلاح شوشة، وأ. أحمد أبو العز.

ولا تنس أن الصبرية بها مدرسة وحضانة (حكومية) ومستشفى ومستوصف طبي ومخبزاً آليا (حكومي أيضا) ومحطة سكة حديد (أساسية) وتغفو – كما ذكرت على حافة الطريق السريع.. وبها مرافق كثيرة مثل نادي للشباب.. وهي عكس عزبة المهندس التي ليس بها سوى مدرسة بنيت في عهد الدكتور أحمد جمال الدين موسى

وكان كاتب هذه السطور مع الحاج سمير عوف -يرحمه الله-.. وأحد أبناء القرية تقدموا بملف أعده البعض إلى سيادة الوزير في رأس البر.. ولست أنكر أنه أي أحد أبناء العزبة قد يخفى ذلك.. فلقد سبق أن أخفى حقيقة الفرن.. نافيا أنه تابع لجمعية رعاية! مع أنه جزء لا يتجزأ منها حتى اليوم! ولقد فضحت منظومة الخبز الجديدة الجميع من تجار الدين والضمير والجهل!

أقول لا تضم العزبة شيئا حكوميا غير ذلك اللهم إلا بعض مكاتب الإصلاح الزراعي.. وكان الله بالسر عليما!

●●●

ثم قرية الفشاشة التي ولدت من رحم عزبة المهندس.. إلا أنها بفضل أبنائها المخلصين وعلى رأسهم الأستاذ محمد الدكروري أصبحت قرية بالنظر إلى ما فيها من خدمات.. مثل المدرسة الإلزامية ومستشفي حكومية وعيادة ماشية ونادي للشباب وكافة المرافق التي يحتاجها المواطن كبيرا وصغيرا.. مثل المضيفة الملحقة بالمسجد..

ولا تنس أن فيها متعلمون ومثقفون (يأتي إلى مكتبة اللاوندي عدد من أبنائها) والتقيت بالمصادفة بابن منها يدرس الدكتوراة في جامعة القاهرة.. وهو ما ليس موجودا في عزبة المهندس!

●●●

ثم عزبة جندي عبد الملاك.. وبها نسبة من زملائنا وممن درسوا في مدرسة الصبرية وجامعات المنصورة والقاهرة والزقازيق وعملوا في مرافق الدولة.. وكان من أبنائها من يعمل ضابطا في القوات المسلحة.. وهي بحكم الموقع القريب تعتبر أن خدمات قرية الصبرية هي بالفعل خدماتها فالمدرسة والمستشفى والنادي.. ولا ننكر أن عددا كبيرا من سكانها قد انتقلوا للعيش في الصبرية.. ولا ننس أن أحد أبنائها يعمل في المحاماة إلى جانب زميلنا الأستاذ نجيب أبو عيطة وكذلك مُدرس الثانوي الأستاذ إسماعيل علام «وهلم جرا.. وزوجة الأستاذ السروجي (المحامي) وهي طبيبة!

وكذلك عزبة لبيب التي بها مدرسون مثل الأستاذ إبراهيم عبد العال وعدد آخر مثل الطبيب الناجح جداً نادر السلسيلي الذي يترأس مركز النيل للأبحاث في القاهرة ولقد طبقت شهرته الآفاق.. ولم ينشغل بأكل حق العزبة في الفرن.. ولم يتقاض رواتب ثابتة مقابل توريدات قادمة من الصين!! أو قمح من روسيا!

ثم هناك عزبة اللوزي وبها عدد لا بأس به من المتعلمين ويأتي منها نفر لمكتبة اللاوندي وكنت التقيت باثنين منهم يُعدان أبحاثا مستقبلية ! لا يسمع عنها أبناء عزبة المهندس للأسف الشديد! وتضم مدرسة حكومية ونادي للشباب ويسكن ضواحيها بعض الأطباء..

وتأتي في النهاية قرية أبو جلال.. وهي حسب التوزيع المحلي هي قرية وليست عزبة.. وبها كم كبير من الأطباء.. والمهندسين ورجال القضاء والمحامين والمدرسين ومئات من حاصلي شهادات التجارة والزراعة والدبلومات.. وبها مستشفى حكوميا.. ومدرسة ونادي حكومي (ليس بالسطو على أرض الغير كما هو الحال في عزبة المهندس!).

وهكذا يبدو أن عزبة المهندس هي عزبة بين عزب مجاورة لكنها لا تمتاز عنها إلا بالجحود فالمهندس أحمد اللاوندي قد هجرها (حيا وميتا) فمقابره في دمياط الجديدة..

والعميد محمد رزق.. ترك وصية أسفل مخدعه ولا يسعده أن يكون من أبناء عزبة جاحدة .. مع أن العزبة لن تنجب مثله في عصاميته وفي مراكزه الشرطية التي تقلدها..

والعميد عاطف عوف قد أقسم أنه لن يزور العزبة إلا مُعزيا إما مهنئاً.. فلا وألف لا..

ناهيك عن الدكتور سعيد اللاوندي خبير العلاقات الدولية والسياسية بالأهرام والحاصل على دكتوراه الدولة في الفلسفة السياسية من جامعة السوربون بباريس فقد خبر أفراد العزبة فردا فرداً.. وانتهى إلى أنه من سكان الدقهلية أما أن يذكر العزبة الميمونة.. فلا وألف لا..

ولقد ترك جبل الرواد شخصا واحدا هناك.. كان يفكر بطريقة المثقف الراقي عندما كان في القاهرة .. ثم عاد إلى القرية وترك من يصغرونه سنا وخبرة.. ليقودوه.. والمفاجأة المحزنة أنه أصبح يفكر كحالهم: المصلحة الشخصية أولاً.. فتحول المسكين إلى نصف متعلم مع دارسي الزراعة والتجارة.. ولله الأمر من قبل ومن بعد..!

(ب) «المسكوت عنه» فى تاريخ العزبة:

هذه مجموعة من المشـــاهد كما اختزنتها ذاكرتى.. ولا يهمنى منها ســـوى أن أقول الحقيقة دون رتوش تاركاً أمر تحليلها وفق معايير مجتمعية حديثة إلى الشباب المتعلم الجاد..

صـــحيح أنه لم يخرج من أبناء العزبة الآن شـــخص واحد يســلك دراســياً طريق البحث العلمي.. واتســعت دائرة الجهل المتعمد. وكبر للأســـف جيش التعتيم الذى يقوده أنصـــاف المتعلمين لكننى ورغم تعـاملى مع دعـاة الجهـل والأنـانيـة والســبوبة ردحاً من الزمن.. فإن أنصـــاف المتعلمين ما زالوا يتنطعون على المقاهى ولم نســـمع أنهم تبرعوا بشـــيء اللهم المُتاجرة بصالح «عام» العزبة لأغراضهم الشخصية.

أخيراً.. ما ذكرته هو مجموعة مشاهد يقرها العقلاء.. وإذا كنت أذكرها اليوم فلأن من حق الأجيال القادمة أن تعرف كل ما يتعلق بالعزبة..

وإذا كنت لا أجد إنساناً واحداً مُتخصصاً فى البحث العلمى فقناعتى أنه ســوف يأتى قريباً وليتنى أكون موجوداً لكى أشـــد على يديه..

وعزائي فى ذلك أن الله ســبحانه وتعالى لا يضــيع أجر من أحسن عملاً.

(١) جغرافية العزبة:

ولدت فى منزل متوسط الحال.. لم يكن بالخرسانة المسلحة كحال بيوتات اليوم لكنه كان من الطوب الأحمر.. وكان ســقفه من الخشــب والقش.. وأذكر أنه كان نظيفا.. به حمام على غير عـادة هذا الزمـان الذى كـان الخلاء هو حمـام الجميع والترع والمصــارف هو مكان الاســتحمام أو المســجد لرجال وشــباب القرية بعد ذلك.

يواجهنا بشـــكل مباشـــر وبعد أكثر من ٢٠٠ متر مزارع الإصــــلاح الزراعى وكانت مملوكة قبلا لصـــاحب العزبة «ألكونت عزيز دى صعب»! وكنا نعرف بعضنا البعض حيث كانت العزبة لا تزيد عن مائة عائلة أو أقل قليلا.. وكل المساكن من الطوب اللبن ماعدا بيت الناظر الذى كان عالياً وكنا نسميه «ســـرايا الناظر» وبعض المنازل ذات الطوب الأحمر لكنها تحشر فى زمرة المنازل الفقيرة لأن سقفها من الخشب والقش والدريس (البرسيم الجاف).

وكانت نصف المساحة التى أمام البيوت يحيطها صاحب العزبة بســور وتســمى المرماح! وكنا ننتهز فرصـــة غياب حارس المرماح ونقوم بلعب الكرة أو العقلة والمضــــرب أو دحرجة الطوق! كما كان يحلو لنا أن نلعب في المســـاء لعبة: عركب ياعركب.. شــــد واركب أو لعبة طاقية الإخفاء.. وكان يســاعدنا فى ذلك لمبة الكهرباء الوحيدة عند «ســرايا الناظر» سيما فى شهر رمضان.. حيث كانت العزبة تسبح طوال العام فى بحر من الظلمات والعتمة.

امتدت البيوتات بعد ذلك.. واتسعت وبنى بعض أبناء العزبة بيوتا أخرى أمامهم.. وأطلق البعض علي هذه المنطقة الجديدة اسم «المنشية» لكى يميزها عن العزبة القديمة أو أصل العزبة وكان سهلا على أى أسرة أن تحيط أرض صغيرة بعيدان الذرة الجافة وتطلق عليها اسم«دروة» ثم بعد أن يتحسن الحال تقوم الأســرة ببناء هذه المنطقة لتصـــبح بيتا أو إضـــافة إلى البيت الأصلي!

وكـانـت إدارة العزبـة تملأ جراجـات البواجير فى داخل المرماح وبعض المكاتب الإدارية خصـوصـا بعد أن حصـلت الثورة المجيدة ثورة ٥٢ على حق الفلاحين الذى كان مهدراً..

وتحولت الوسية- هكذا كانوا يسمونها- إلى إصلاح زراعى وعمت أفكار مثل العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص.

وأصبح الكُتّاب الذى أنشأة صاحب العزبة بمثابة مدرسة لتحفيظ القرآن وتعليم الحساب لبعض الوقت..

وتحولت البيوتات رويدا رويدا إلى بيوتات من الطوب الأحمر والخرسانة المسلحة.. وتقلصت سلطة ناظر العزبة الذى كان يركب الحنطور والكارته يوميا..(الحنطور صباحا.. والكارته بعد الظهر) ليمر على أطيان الكونت.

ومن اللافت للنظر أن أحد الفلاحين من أبناء العزبة كان إذا مر على الناظر أو بعض ضيوفه.. ينزل فورا من فوق حماره ويسير بجواره حتى يعبر هذا المكان والسبب حسبما عرفت لاحقا- أنه لا يصح له وليس من الذوق السليم أن يمر على «عليه القوم» وهو راكب حماره!

وفى نهاية العزبة كان هناك حوض للماشية.. ليسحب كل فلاح في العزبة ماشيته لكى تشرب منه، وفى الركن منه توجد طلمبة كنا نسميها (كاركه) يتولى غفير العزبة فى ذلك الوقت إدارتها وملء الحوض وفى مدخل العزبة كان يوجد فضاء يشغله الجميع فى موسم الحصاد..

ومازلت أذكر حصاد الفول.. والقمح. والكتان.. الذى كان يدور عليه فى شكل حلقات الماشية التى تجر النورج..

ولن أنسى ماكينة الحصاد الذى كان يديرها بعض أفراد من العزبة لحساب الكونت - وكنا صغاراً نلعب على سور الماكينة الذى توجد حوله أحمال الحصاد سواء كانت ذرة أو أرز أو قمح..

وكانت المنطقة التى فيها المدرسة.. خالية تماما من السكن فقط مزارع تابعة أولا لصاحب العزبة.. ثم أصبحت بعد ثورة ٥٢.. تابعة للإصلاح الزراعى.. ثم أصبحت بعد ذلك مكانا للسكنى عن غير حق وبالألاعيب وانعدام الضمير!! باختصار كانت عزبة طيبة. جغرافيتها بسيطة ومباشرة وبعيدة عن التعقيد. ومحدودة العدد بحيث يعرف أبناؤها بعضهم البعض فالمصاب في منزل هو مصاب فى المنازل الأخرى كذلك الفرح هنا هو ذات الفرح هناك.

لكن سكان العزبة من الكبار هم آباؤنا وكل سيدات العزبة هن خالاتنا أما الشباب والصغار فهم أخوتنا لا نشعر بأى تمييز عنهم..

طبعا لقد كبرت العزبة وامتد بنيانها وراء الكوبرى وبعده.. وعبر المنشية وبعد الحوض وأصبح صعبا معرفة كل أبنائها.. فتضطر أن تسأل :من هذا الابن.. ومن هو أب هذه الابنة!

وتغيرت القيم الحاكمة والمعادلات الإنسانية التى تربط بين الناس وبعضهم البعض.. لكن هذه سنة الحياة.. وأشهد أن الناس جميعا فى العزبة كانوا أخيارا.. يحبون بعضهم البعض وتسودهم نفس المبادئ والقيم.. فلقد أحسنوا في فترة حياتهم.. وعلى شباب اليوم أن يعترف باحترامهم. واحترام خياراتهم.. وأن يصنعوا حياتهم الحالية دون أن ينسوا أن على هذه الأرض عاش أناس من أخيار الناس.

***

(٢) جيل الروّاد:

أقصـــد بجيل الرواد خمســـة من أبناء عزبة المهندس هم المهندس (مدنى) أحمد اللاوندى ثم المهندس (كهرباء) محمود هلال والعميد محمد رزق (ضـــابط شـــرطة) ثم العميد (أركان حرب) عاطف عوف وأخيرا الدكتور ســـعيد اللاوندى مدير تحرير جريدة الأهرام.

واسمه جيل الرواد لأنه ظل نحو أربعين عاما أو يزيد مثالا يحتذى فى التفوق الدراســـى ومحبة أهل العزبة دون تمييز.. ثم حب بعضـــهم بعضـــا الذى فاق التصـــور فكان كل إنســـان منهم يشـــعر بأن بيت الآخر هو بيته وكذلك أخوته... وأهم من كل ذلك أن أحدا من أبناء العزبة لم يتفوق عليهم.. فلم نجد مهندســـا أو طبيبا أو كاتبا مرموقا يدلى برأيه السياسى أو الاجتماعى في التلفاز على نحو ما نجده مع أحد أبناء هذا الجيل.. وقد ظل هذا الفراغ سنوات عددا.. وكأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان!

والحق أن عشـــق هذه العزبة كان قاســـما مشـــتركاً للجميع.. فأذكر أننا كنا جميعا ننتوى تغيير اســـم العزبة ليســـبقها كلمة «كفر» ظنا منا وقتئذ أن كلمة«كفر» تلحق عزبتنا بالمدنية أو هى تجعلها مدينة قلبا وقالبا.... كان هذا الشـــيء البســـيط يملأ تفكيرنا جميعا دون أن يتحدث أحدنا مع الآخر.

ولابد أن أعترف أن تعلقنا بعزبة المهندس لم يكن يغادرنا لحظـة واحدة أثنـاء دراســـتنـا فى القـاهرة.. ففى كل المواقف الدراســـية والحياتيه كانت العزبة.. موجودة لدى كل فرد منا حيث كنا نلتقى فى أوقات ثابتة مثل أجازة نهاية الأسبوع..

والشـــيء الذى أفتقده الآن أن كل إنســـان كان فرحاً من كل قلبه لصـــالح الشـــخص الآخر..وأقول الحق كنت أرى نجاحي وفلاحى فى نجـاح الآخرين من أبنـاء جيلى كمـا لم يكن هـذا الجيل يبخل على نفسه بالعصامية.. فكل شخص كان يطمح إلى أن يكون أفضـــل حالاً مما هو عليه.. كنت أرى ذلك بنفســـي عندما أجد عصـــامية المهندس أحمد اللاوندى وكذلك حماســـة وغيرية وطموح الكابتن محمد رزق الذى صـنع حياته العامرة والمليئة بالأحداث من لا شيء!!

لم يكن هناك تيلفونات بيننا.. لكن فى عطلة نهاية الأســـبوع كان كل واحد منا يســـأل عن الآخر متمنيا له- من كل قلبه- النجاح والتوفيق.

ولابد أن أعترف أن الحياة قد فرقتنا لكن حبنا الدافئ لبعضـنا البعض ظل قاسـما مشـتركا بيننا جميعا.. فلو تحدث شـخص عن المهندس محمود هلال أو الكابتن عاطف عوف لوجدت ابتســامة رضـا عريضـــة قد احتلت مكانها على شـفاهنا. لأن أى مديح فى شخص يبدو كأنه مديح فى الشخص الآخر أو فى الجيل كله.

ولا ننسى فى هذا الخصوص شيئين الأول هو زملاء لم تشأ ظروفهم الشخصية والعائلية أن يواصلوا معنا طريق العلم وطلبه ســـواء فى القاهرة أو أوروبا..مثل الحاج فتحى رضـــوان الذى اختار أن يرتبط بمدرسة أخرى غير مدرستنا في شربين ومازلت أذكره وهو يركـب دراجتـه الجميلـة ذات الكشـــاف الكهربي وملابسـه الأنيقة التى كنا نحسـده عليها.. كذلك الحاج ناجح وطفة الذى كان من أكثرنا أناقة بملابســه الجميلة التي كان يختارها له أخوه الأكبر.. ثم الحاج عطية حســن الذى كان ذكيا والمعيا لكننا على اتصـال به في صـداقة لا تنتهي حتى بعد أن اختار أن يكون ترزيا.. وكم حدثت لنا نوادر معه فى دكانه الشـــهير الذى كان قبلتنا فى الليل والنهار..

هناك زملاء في المدرسة الابتدائية تساقطوا كما تتساقط الزهور فى فصل الخريف لكن مازلنا حتى الآن نذكرهم بكل الخير مثل الحاج حامد السقا والحاج عوض الخميسى.

الشيء الثانى الذى أتذكره هو الجيل السابق لنا وكان يضم ثلاثة لم يحصل أحد منهم إلا على شهادة البكالوريا- الثانوية العامة. وهم الراحل عبد اللطيف وطفة والأستاذ عاطف وطفة والمشرف الزراعى الراحل عبد الخالق الخضرجي الذى كان يعلمنى الحساب والجمع والطرح والضرب جزاه الله عنى خير الجزاء وأسكنه فسيح جناته.

طبعا هناك آخرون لم يحالفهم الحظ فرسبوا فى شهادة البكالوريا وانتهت فترة حياتهم فى العزبة.. لكنهم عادوا إليها مثل الأستاذ عبد الجليل وطفة.. أقول الحق أنا أعتز كثيراً بهذا الجيل الذى أشرف بالانتماء إليه والذي لم يخرج جيل آخر على مرّ السنين. ليجبه أو ليمحوه أو- على أقل تقدير- ليظل بجواره.

وكنت آمل أن يقوم البعض من أبناء جيل هذا الزمان- بتكريم جيل الرواد.. لكن لم يحدث لأن جيلى من الرواد فقد أترابه سواء في الحروب أمثال الشهيد محمد حسانين أو بالموت البيولوجي مثل كثيرين ولم يعد سوى جيل معذور لا يعرف ماذا فعل جيل الرواد لكى يحقق نجاحا فى حياته فيصبح كل من المهندس أحمد اللاوندى والمهندس محمود هلال.. رجلين يشار إليهما بالبنان كما أصبحا الضابط محمد رزق والضابط عاطف عوف من الضباط المرموقين في الشرطة والجيش.. أو يصبح الدكتور سعيد اللاوندى من الشخصيات المرموقة التى تتكالب عليه الفضائيات والجامعات كذلك للقيام بالتدريس فى مصر وأوروبا ناهيك عن دوره الرائد في جريدة الأهرام أكبر الجرائد الشرق أوسطية انتشاراً ومصداقية.

..ينبغى أن أذكر أننى أشـــعر بأن أخوة أفراد هذا الجيل هم أخوتى وهم كذلك يشـعرون بنفس الشـعور تجاه أخوتى.. وكنا بأريحية تامة نحمل الغذاء والكســـاء لهم والأموال التى كان يجود بها أباؤهم كما كنا- ولازلنا نشـعر بالراحة والأمان إذا ما ألقى أحدنا أحضانه فى أحضان الآخر بعد طول غياب.

(٣) صاحب العزبة (الكونت عزيز دى صعب):

نشـأت في قرية، يسـكنها أناس طيبين.. كنا نقول عن أهلها أنهم الأهل والعشـــيرة فكل رجل هو بالضـــرورة (عمى وكل سيدة هى بالضرورة خالتى..)

لكن إطلاق اسم عزبة المهندس على العزبة لم أعرف سببا له- اللهم إذا اعتبرنا أن صاحب العزبة كان مهندسا لذلك حملت القرية هذا الاسـم وإن لم يمنع من وجود أكثر من قرية اسـمها المهندس فى أنحاء مصر- ولا تمت لصاحب قريتنا بصلة.. إلا إذا اعتبرنا أن أصحاب القرى الأخرى كانوا مهندسين أيضا.

صـــاحب العزبة أو القرية كان يســـمى الكونت عزيز دى صعب وهو كما يبدو من اسمه كان قبطيا وكنت رأيته مرة واحدة عندما أنشـأ لنا- ضِـمن أشـياء أخرى أنشـأها قبلاً وبعد ذلك- مدرسـة أشـبه بالكُتَّاب وجاء الرجل وكان أشـيبا. لكن ملامحه لا تخلو من صرامة عندما هبط من سيارته الفارهة.. وأخذنا نصفق له مع جموع الفلاحين. وأذكر أننا شكرناه على المدرسة التي كنا نجلس فيها علي الأرض ويضـــع كل تلميذ زجاجة مليئة بالماء أمامه.. وكان يقوم بالتدريس فيها شـخص يدعى الشـيخ «سـيد» والشـيخ «يوسـف» من قرية مجاورة أما الحمام فكان عبارة عن فوهة مفتوحة تطل على بدروم. وكانت خارج مبنى المدرسة.

للإنصاف يجب أن نذكر شيئين: الأول أن افتراشنا للأرض لم يكن إلا لفترة محدودة ريثما ينتهى النجارون من عمل «التخُت» التي كان لونها يميل إلى الاصفرار..ويقال أن ناظر العزبة أخذ هذه «التخت» وصنع منها أشياء أخرى فى بيته بعد تفكيكها!!

الشيء الثانى هو أن التدريس كان علمانياً.. فلا أذكر أن «الشيخ يوسف» كان يقرأ لنا القرآن الكريم أو يحمل كل منا لوحا على الطريقة التي كانت معروفة فى هذا الزمان.. وإنما كان يقوم بتحفيظنا جدول الضرب ويعلمنا الحساب وبعض الأناشيد وإن لم يمنع من تدريس بعض الآيات القرآنية الصغيرة مثل الفاتحة والصمدية.

كنت أعرف اسم الرجل من أوراق الأرض التى كان يجعلنى والدى يرحمه الله- أقرأها وكذلك أوراق الجمعية الزراعية التابعين لها وكانت فى قرية مجاورة تسمى «الصبرية».

وللإنصاف يجب أن أذكر أن الكونت عزيز دى صعب قد بنى مسجدا فى القرية ومدرسة.. ومن زمام أراض له تبلغ ستين فدانا أعطى القرية كمنحة عشرة أفدنة لبناء مقابر عليها.. وحتى الآن يقال عن أى إنسان اختاره الله أنه ذهب إلى الستين.. نسبة إلى ال٦٠ فدانا التابعين للرجل، لكنهم يقصدون أنه توفى..

وأذكر أنى لبست بيجاما- لأول مرة- عندما كانت القرية تحتفل بمجيء الكونت عزيز دى صعب- الذى لم يكن يأتى دائما وإنما ترك الوسية« أقصد ممتلكاته فى رعاية ناظر» وبعض الموظفين وسائقى البواجير وجامعى القطن أو المحاصيل..

وحسب معلوماتى كان صاحب القرية إياه طيبا ولا يؤذى أحدا وكان خيِّرا ينعم سكان القرية باستقرار تام فى حياته.. وكانوا يسكنون في بيوت صغيرة ويعملون فى أرضه نهارا.. ولم يكن فى القرية سوى صف واحد من البيوتات أما منطقة المنشية- وهذا اسمها حاليا فكانت أرضا بورا.. أهم ما يميزها التراب الناعم الذى كان يكسوها.. وكان كل سكان القرية يعرفون بعضهم بعضا، ويتزاوجون من جيرانهم.. ونادرا ما نجد إنساناً يقوم بتزويج ابنه أو ابنته من خارج القرية.. وربما لهذا السبب كنا نشعر بأن القرية أسرة واحدة..

وكانت الابنة إذا خرجت من بيت والدها إلى بيت الزوجية لا تعود ثانية إليه إلا بعد وفاتها- حاشا لله.. وعندما كنا نسأل عن سبب ذلك كانوا يقولون لنا.. أنه العُرف السائد ولا إمكانية لتغيره!

وكان يعمل إماما وخطيبا فى المسجد الوحيد فى القرية حينئذ شيخ يدعى عبد الصمد.. أما المؤذن فكان الشيخ محمد المناوى.. هذا هو اسمه.. ثم بعد أن مات الأول، آلت الإمامة إلى ابنه وكان طالبا فى الأزهر فى كلية الشريعة والقانون.. وبعد أن هجر الثانى المسجد تولى شأن الأذان رجل آخر يدعى الشيخ توفيق زهدى..

وأذكر أن حياة الناس في القرية كانت معلقة بالمسجد وكأنه المكان الوحيد الذى يمثل الله سبحانه وتعالى.. ولذلك كانوا يسمونه بيت الله.

الآن تعددت بيوت الله فى القرية كما تمت السكنى فى المنشية مما يعني أن القرية قد كبرت واتسعت وامتدت حتى الطريق المؤدى لقرية أخرى هى قرية أبو جلال... وأقول الحق لقد خرجت من قرية المهندس قرية أخرى اسمها قرية الفشاشة.. لأن جميع سكانها كانوا من سكان قرية المهندس.. فكانوا أول من استوطنوها بالقرب من الأراضى التى يفلحون فيها.. وأقول الحق لقد كانوا ينظرون إلى قرية المهندس وكأنها المدينة التى خرجوا منها. ولقد ظل هذا الحال بعض الوقت حتى قيض الله لقرية الفشاشة أحد أبنائها ويدعى محمد الدكرورى- يعمل موظفا في المجلس المحلى فيحول قرية الفشاشة إلى مدينة بها مدرسة ومستشفى وعيادة ماشية- وتراجعت قرية المهندس إلى ما دون القرية بسبب الخلاف الذى دب بين بعض من ظنوا أنفسهم قادة.. وهم فى الأصل أنصاف متعلمين ولله الأمر من قبل ومن بعد!!

(٤) المرسى بن حبيبة:

.. كانوا يطلقون عليه اسم المرسى بن حبيبة.. كان رجلا طيبا، لم يعرف عنه أنه تسبب فى أذى أحد.. يلبس ملابس ممزقة. ويسير هرولة (بين السير الطبيعى والجرى).. وكان مميزا بأنه يلبس جلبابا وفوقه جاكيت يشتركان فى البقع والتمزيق.. ويقال أنه كان يعمل مرة عربجيا ومرة أخرى كناسا أو عامل بلدية.. ومرة ثالثة كان يعمل عامل مراحيض فى البندر.

كان شخصية هلامية- كنت كلما رأيته أشعر بالأنس والبهجة.. عكس الناس الذين كانوا يضربونه دون ذنب جناه..

اللافت للنظر أنه كان يغيب عن عزبة المهندس ربما شهوراً طويلة.. لكن ما أن يعود حتى يعرف كل الناس بوصوله.

لأنه قبل المغرب بقليل يدخل إلى البيوت دون اســتئذان بينما كل أفراد الأســرة قد تحلقوا حول طبلية العشــاء.. فيجلس بالقرب منهم.. ثم تقوم ربة البيت بتقديم الطعام له.. وفى الغالب لم يكن أكثر من طبق من الأرز- وقطعة من اللحم إلى جانب صــنف أو صنفان من الخضار مع شوربة كان يختم بها المرسى طعامه..

ومثلما جاء فجأة يذهب فجأة دون أن يهمس ببنت شــفه.. ثم يدخل بيتاً آخر.. ويفعل ما فعله فى البيت الأول..

الشــيء المحير أن المرسـى بن حبيبة كان يدخل أكثر من بيت ويتناول نفس الطعام من لحم أو بط أو سمك.. وكنت أتساءل..

كيف كانت معدته تستوعب كل هذا الخليط من الطعام!

وفي شــهر رمضــان.. يبدو لى أن المرســى كان يدخل بيوتا يتوسم فيها أنها تهتم بالطعام فى شهر الصوم..

وفى الأعياد كان يدخل ذات البيوت.. وأشــهد أن أحدا لم يكن يبخل عليه بالعيدية.. التى قد تكون نقودا أو ملابس قديمة العجيب والغريب أن المرســى كان يعيش فى حجرة جد متواضــعة مع أمه.. التى كان يطلق عليها البعض اسـم حبيبة الهبلة! وما كانت- أشهد الله- بهبلة.. لكنها المسميات الغريبة التى كانت ألسن البعض تلوكها دونما سبب!

.. ولعلها كانت المرة الأولى- وليســت الأخيرة - التى رأيت خالتى حبيبة تلبس جلابية سوداء.. لكن لونها الأسود قد استحال إلى لون أخضر فى بعض حوافيه من شدة القدم!

.. ولم تكن تهبط علينا فجأة مثل ابنها المرســى.. لكنها كانت تطرق الأبواب وتدخل تســبقها الحوقلات من الشــيطان الرجيم والصلاة علي أشرف المرسلين.. ثم تجلس فى هدوء.. وتتناول ما تقدمه لها ربة البيت فى صمت ثم ترحل..

لم تكن تغيب خالتي حبيبة عن العزبة كحال ابنها المرسـى ولذلك كانت زياراتها لا تنقطع سيما من البيوتات التى لا تبخل عليها بالطعام إلى جانب بعض الحبوب مثل الذرة والقمح والأرز ناهيك عن الملابس القديمة.

والحق يقال أن المرسـى الذى لم يكن متزوجا كان يزرع العزبة ساعة العشاء ذهابا وإيابا ولا تراه إلا وهو داخل إلى هذا البيت أو خارج من بيت آخر..

وإن كنت أعجب.. فالعجب كله من طريقة أكله.. لقد كان نهما يبتلع الطعام ابتلاعا.. ولا ينظر خارج الطبق الذى يأكل فيه!

وكان الناس جميعا يعتبرونه عضوا فى الأسرة.. يعتزون به كأحد أبناء العزبة.. فلقد التقى به كثيرون فى المركز القريب منا.. فكانوا يلقونه ببشاشة.. وكان منهم من يعطيه قطعة نقود.. فلم يكن يتردد.. ولا ينس أن يعرض خدماته عليهم!

وقد رآه أحد أبناء العزبة- مصادفة- وهو يعمل سائقا لحنطور فى المركز.. وظل يتحدث عن ذلك مع الآخرين وكأنه رأى شيئا عجبا!

فجأة ذات صباح، وبعد غياب أيام، قيل أن خالتي حبيبة أصبحت فى ذمة الله.. لم يبك أحد عليها.. لكن الوجوم أصبح سيد الموقف ربما خشية من الموت المفاجئ- فالموت حق على الجميع.. وربما لأن غياب خالتى حبيبة الدائم سوف يكون عنوان المرحلة المقبلة.

..وفي ذات يوم تحدث أحد أبناء العزبة فى برود.. وقال أنه علم أن المرسـى بن حبيبة قد لحق بأمه ودفنوه فى مقابر الصدقة فى إحدى المدن المجاورة.. ولعلها المنصورة.

.. لم يندهش أحد لغياب المرســـى.. كما لو كانوا يتوقعونه منذ فترة واليوم.. بعد أن رحلت خالتى حبيبة.. وولدها الوحيد المرسى. أشعر بأن شيئاً أصيلاً من العزبة قد غاب.

وأشـــهد الله أن أحدا لم يكن يخاف من هذه الأم وولدها.. لقد كانت خالة لنا جميعا وكان المرسى أخا لنا جميعا..

نضـــحك معه أحيانا إذا صـــادفناه فى الطريق.. وكان يرد على تحيتنا له بابتسامة ورضا.

لقد كان المرســـى ووالدته حبيبة من العُمد الأســـاســـية فى العزبة.. لقد كان يســـكن فى حجرة نشـــعر جميعا بأنها جزء أصـــيل في قلب العزبة.. صـــحيح لم يكن فيها أدوات الرفاهية- فى ذلك الوقت. لكنها كانت قريبة من الكثيرين. ولم لا.. وهى تضم أصدق أم وأطهر ابن وأحن أسرة..

(٥) تل «العتل»:

..عرفناه بهذا الاســـم.. كما عرفناه باســـم آخر هو «الكوم الأحمر» يقع على مسـافة ربع سـاعة بالسـيارة.. وسـمعنا عنه أســاطير كثيرة كان أكثرها انتشــاراً أن النبى محمد ﷺ قد هبط إلى قرية تســـمى قرية العتل..كل ســـكانها من الكفار وقطاع الطرق واللصوص.. ولأمر ما كان يتخفى فى ثياب رجل شحاذ وفقير ومعدم تقطعت به السبل فاضطر إلى أن يطرق الأبواب طالبا الصدقة..

وتضـيف الأسـطورة التى كانت مُنتشـرة انتشـار النار فى الهشـيم أن سـكان القرية كانوا يغلظون فى حديثهم إليه، وهم يقفلون فى وجهه الأبواب..لكن النبى ﷺ لم ييأس حتى طرق بابا كانت في خلفه سـيده مؤمنة.. فطلب منها ماء يقيه حر الشـمس فقالت له: انتظر بالباب حتى أحلب لك هذه البقرة وأشـارت بيدها إلى داخل المنزل ..وإذا بها تقوم بحلب البقرة حتى سمعت أصواتا فى السماء أشبه بفرقعة الرياح.. فلم تصبر على ذلك..

فالتفتت إلى الرجل الشـحاذ بالباب.. فلم تجده لكن مع الفرقعة الثانية دعا النبى ﷺ من الله سـبحانه وتعالى أن يقوم بسـخط القرية والسـيدة التى تحلب البقرة.. فتحولت إلى التل الأحمر.. الذي يعرف بتل العتل.. كما تحولت حالبة البقرة إلى مُجسـم أو تمثال يجسـدها مع بقرتها قيل أنه سُـرق مع أشـياء أخرى عندما ظن الناس فيما بعد أن التل الأحمر عامر بالتماثيل الأثرية..

هذا ما كان يقال من أسـاطير حول تل العتل الذى تتناقص مساحته يوما بعد يوم لأن أصحاب الحقل من حوله يستصلحون منه أمتارا سنويا تضاف إلى مزارعهم..

أيا كان الأمر لا أنسـى أنه فى شـم النسـيم من كل عام وبعد أن نسـتحم فى ترع ومصـارف القرية على عادة هذا الزمان ونغرس فى الأبواب والشـبابيك والحيطان فروعا من أشـجار شـعر البنات الصـفصـاف.. نشـد الرحال إلى تل العتل محملين بالفسـيخ والبيض الملّون وكان يقودنا زميل عزيز هو الحاج عطية حسن..

وهناك.. نلعب الكرة ونستخدم القباقيب كمضارب لكرة التنس التى علمنا إياها الكابتن عاطف عوف الذى كان أكثرنا التحاقاً بالمدنية الحديثة!

وبعد أن نأكل ونتعب من الصعود والهبوط فوق تل العتل نعود أدراجنا إلى العزبة وأذكر أننا لم نكن نكف عن الضحك البريء الذي يسببه لنا الحاج عطية حسن الذي كنا نحبه ولم نشعر يوما أنه تخلف عن مسيرتنا العلمية..

.. والحق أن هناك مشاريع كثيرة لهذا التل شرط أن نتركه أو يقدم بذلك وزارة الآثار التي تبسط نفوذها عليه منذ زمن..فأحد أبناء عزبة الفشاشة- وهى عزبة مجاورة لعزبة المهندس- وهو الحاج محمد الدكرورى قال لى أنه يعتزم مع أبناء قرية ثالثة هي قرية أبو جلال إنشاء مدرسة ثانوية فى تل العتل تقوم بخدمة القرى المجاورة لها.. لكن حتى كتابة هذه السطور لم يحدث شيء بعد أن تحدث دكرورى مع محافظ الدقهلية وخاطب في ذلك المجالس المحلية لكن لم يخرج إلا بكلام معسول وتسويفات على عادة هذا الزمان!

وأخيرا سمعنا أن اثنين من أبناء العزب المنتشرة حول تل العتل قد قتلوا بسبب قطع أثرية تم العثور عليها كما قيل هناك.. وهكذا تحول تل العتل من مكان هبط إليه الرسول الكريم (ص) إلى مكان تحرش وقتل.. لا يسكنه غير الشيطان!

يبقى أن أذكر أن الإنسان يسبغ ما في نفسه على الأماكن من حوله فالآباء والأجداد كانوا أخيارا لا يرون إلا خيرا.. أما جيل اليوم الذى يلهث وراء الماديات لا يرى فى هذه الأماكن إلا المردة والشياطين!!

(٦) توحه والجبار!

.. لم أنس بعد هذه الواقعة وأشـــهد أني قد تذكرتها منذ فترة ولم أنم ليلتي يومئذ فقد ظللت - ربما- ثلاث ليالى متتاليات لا أذوق طعماً للنوم.. والســبب هذا الجبار «أبو توحه» الذى لم تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا وقتل ابنته قتلاً بشعا والغريب أنه كان منتشـيا وراضـيا.. وخيل له عقله المريض أنه إنما اقتص لشرفه! مع أن فعلته هذه هى التى قضت تماما على البقية الباقية من شرفه..

الواقعة تبدأ من أن أحد الشياطين الذين يسكنون جسد إنسان قد اقترب من توحه فى الحقل وأخذ يملأ أذنيها بمعســول الكلام الذى اقترب منه مثل عسلية عينيها.. وجسدها المياس.. اللذان لم يلمسهما إنس ولا جان..

الخلاصـة أن البنت المسكينة قد أسكرها هذا الكلام الذى لم تسمع به من قبل وسلمت نفسها للشيطان الذى عبث بكل شيء.. ثم هرب ولم تعد تراه..

.. وبعد طول انتظار تسرب الشك إلى قلبها فحادثت أمها فى أمر الشاب. وما كان من الأم سوى أن تحدثت همسا مع والدها الذى تحسس شاربه وجلبابه الأبيض وعصــاه التى يتوكأ عليها وأضـــمر فى نفســه أمرا لم يعلم به أحد.. وإن كان قد ملأ الدنيا وشغل الناس ردحا من الزمن..

الغريب أن الوالد الجبار لم يبحث عن الشاب- الشيطان الذى غرر ببراءة ابنته واختار السهل.. فبعد العشاء عاد الرجل وحده إلى المنزل ودخل حجرة صغيرة فى «الدروة» التى كان يسكن فيها مع أولاده الصغار..وأمسك فى يده الأولى سكينا وفى الثانية كوبا من السم الزعاف.. ودخل الحجرة التى فيها ابنته التى ما أن رأته وعينيّه يشع منهما النار حتى رأته عزرائيل، جاء من صلاة العشاء لكى يقبض روحها..!!

لم يتركها الأب- الجبار تتوزع بين هذه الهواجس وقال لها كلمة واحدة فى صـــوت أجش: جئت لكى تموتين أمامي إما بالسكين ذبحا – قال ذلك ورفع يمناه بالسكين- وإما أن تشربى هذا السم ثم رفع يداه بكوب مُترع بالسم الزعاف..

لم تتردد طويلا الفتاة.. وإنما فى كثير من خوف مدت يدها بارتياب وأخذت الكوب ثم أفرغته من فورها فى جوفها..

..وبعد أن اطمأن الأب- الجبار لهذا المشـــهد العبثى ورأى ابنتــه تقع على الأرض أمــامــه..أدار لهـا ظهره وخرج ليجـد زوجته تئن وتحبس صرخاتها وقد تكوم أطفالها من حولها وهم يبكون فصـــرخ فيهم جميعا أن اهدأوا.. وأمرهم ألا يفتح أحد البـاب على المســـكينـة ولا يقدم لهـا العون ويتركهـا تخور – كالبقرة التى أكلت عشبا مسموما حتى تموت..

وحاولت المســكينة أن تزحف نحو الباب وتطرقه بطرقات عشـــوائية فلم يجرؤ أحد من الاقتراب بالباب وتركوها حتى خفتت الطرقات..

رويدا.. رويدا حتى ماتت.. وفى اليوم التالى حملها والدها الجبـار فى الكفن وذهـب إلى مقـابر العـائلـة ودفنهـا وحـده مع بعض الصبية..

وانتهت قصــــة توحـة الطـاهرة التى قتلهـا جهل والـدهـا.. وجبروته عندما لم يســامحها أو حتى يبحث عن الشـيطان الذى عبث بها..

وظل الرجل يشـعر أنه اقتص لشـرفه.. ويتوهم أنه حصـل على ثأره من فتاة غرر بها آخر لا يخلو من نذالة وخسة

وضاعت توحة مع أخريات لقيت نفس المصير..

وظل الأب- الجبار يعيش بين الناس لبعض الوقت.. لكن قصة توحة لم أنسها.. وأشهد أننى أمر فى كل مرة من أمام الدروة..

فأتذكر توحة التى قتلها والدها.. والغريب أن أحدا من العزبة لم يتكلم أو يتحرك وكأن الجبار قد فعل ما كانوا جميعا يريدون فعله..

الغريب أنى سألت أحد كبار العزبة فاكتشفت أنه يعرف قصة توحة من ألف حتى ياء.. وأعطانى تفاصيل أخرى.

لكنه قال ذلك وانشغل بثلاجة البطاطس التى كان يشرف عليها ونسى كل شيء!

المدهش أن الشيطان الذى عبث بها.. وملأ أذنيها بمعسول كلامه قد فرح أنها قد ماتت وعاد ليظهر فى العزبة من جديد.. واختار فتاة طيبة من قرية مجاورة واقترن بها..وزفه أخوه الأكبر فى ليلة شهيرة مع عروسته- التى أمضى معها أياما- يبدو- أنها سعيدة ثم عاد مجددا ينسج شباكه فى طريق فتاة أخرى.. لكن هذه المرة كان أبوها رجلا عاقلا فذهب إليه وهدده..فرضخ الشيطان وتزوج فريسته الثانية وعاش معها فى قريتها وظل بها حتى مات وهكذا اقتص الزمن لتوحة التى ماتت غدرا بسبب هذا الشيطان!

وتعكس هذه الواقعة مع ما تعكس من دلالات- أن المرأة في الريف المصـــرى لا تتمتع بحقوقها كإنســـان.. دائما يتم التعامل معها كشـــيء زائد عن الحاجة دونما احترام لعقلها وطريقة تفكيرها أو تفهم لغرائزها وطموحاتها.. وقد دفعت ثمن ذلك.. كما دفعت ثمن جهل والدها.. وسلبية المجتمع الذى تعيش فيه.. وكانت الأقدار قد خلقت توحة لتكون أما كالطبيعة تملأ الدنيا أولاداً أو بناتاً وسعادة وحبوراً.. لكن جاء الجبار ليقضــى على ذلك كله بجهله وجبروته ويختار لتوحه أن تموت إما ذبحا كالثور أو بالســـم كالبقرة وصـــدق من قال: تعددت الأســـباب والموت واحد..!

(٧) الشيخ شحاته!

.. لن أنسى ما حييت أن الشيخ شحاته زهدي هو من علمني وجميع أترابي صــلاة الفرد وصــلاة الجماعة وكيفية الوضــوء. كنا نخرج من المدرسة ونزدرد غذاءنا بسرعة لا مثيل لها.. ثم نتجه من فورنا إلى مســـجد القرية – الوحيد في ذلك الوقت – فيستقبلنا الشيخ شحاتة بابتسامة عريضة.. وكان مميزاً بجلبابه الأبيض فنرتمي في أحضـــانه.. ويأخذ من فوره يعلمنا كيف نصــلي.. بل كيف نتوضــأ. وأذكر أنه كان يتعمد أن يكون مثالاً حياً لنا.. ففي الوضـــوء يغتســـل أمامنا أكثر من مرة.. ولا أنس أنه كان يعلمنا أن نلف أصـــابعنا كي ننظف آذاننا وكيف كان ينتظر أن نجعل الماء ينزل من كوعنا ونحن نغســـل أذرعنا مثله...

بل أكاد أقول شــيئاً جديدا.. هو أن الشــيخ شــحاته –يرحمه الله- كان يكثر من ذكر الآية الكريمة التي تقول: **(قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً)** [الكهف:١٠٩]. صدق الله العظيم

وأقول الحق لقد عشقت هذه الآية.. وتمنيت أن يتلوها الشيخ شحاته دائما.. وكنت أشم في هذه الآية الكريمة رائحة الصحافة التي تبُني على كلمات.. بل أكاد أقول أن الشيخ شحاته قد لفت نظري للعمل الصحفي –دون أن يدري- وفي وقت مبكر جدا من حياتي..

وعندما ذهبت إلى القاهرة في كلية -الاقتصاد والعلوم السياسية- كنت أنزل إلى العزبة في أجازتي السنوية وأحرص على لقاء الشيخ شحاته بل كنت أتناقش معه في أمور حياتية كثيرة.

وعندما أصبحت جنديا في القوات المسلحة كنت أحرص –في أجازاتي أن ألتقي به. وأذكر مرة أني ذهبت إلى منزله بحثا عنه.. وفوجئت أنه يضع صورتي وصورة كل أبناء جيلي على الحائط.. وراعني أنه كان يعلق الصور ملصقة في جالس من الطين.. وضعه على الحائط.. أما المرآة التي كان يرى نفسه فيها أو يصفف شعره فكانت شقة زجاجة.. وضعها في جالس آخر من الطين على الحائط أما المشط فكان عبارة عن مشط ذو أسنان عظمية.. أكثرها كان مقطوماً..

.. وأذكر أني جلست معه أسفل المرآة والصور وأذهلني أنه كان ينام على الأرض، وفي ركن قصي من الحجرة كانت هناك الجاموسة التي يملكها من كل حطام الحياة..

وأثناء مناقشتي معه كان يتحدث عن ابن عمي –وزوج أختي- المهندس أحمد اللاوندي ويقول أنه عمقري.. بالميم وليس بالباء.. وكان يعيد عليّ ما سبق أن تحدث به معه وكانت مناقشة حول التاريخ الإسلامي.

***

في إحدى المرات كانت ابنته تبكي لمُدرّسة اللغة العربية في المدرسة واكتشفت أنها كانت تقول أن والدها محكوم عليه بأن يشرب صفيحة جاز وأن يصمت لمدة شهر لا ينبس ببنت شفة وأن يكون محل إقامته في المقابر..

اندهشتُ أن الشيخ شحاته – الرجل التقي الورع يتعرض لكل هذه العقوبات.. وأخذت أفكر في هذا الأمر.. دون أن ألوي على شيء...

***

عندما ذهبت إلى الكلية.. كنت أحرص على لقائي بالشيخ شحاته في أجازاتي وفي إحدى المرات كنا نجلس معاً على الكوبري.. وأخذ يروي لي كيف كان يثق فيه الناس مع أنه لا يجيد القراءة والكتابة.

وقال: كنت في حقل قريب من التل أقلع وأزرع فإذا بسيارة سوداء فارهة تقف بجوار الحقل ونزل منها رجل أفندي – هكذا قال لي- ثم سلم علي وقبَّل يدي.. وأمرني أن أذهب معه..

في البداية يقول الشيخ شحاته – توجست وظننته من رجال الأمن.. وبعد ساعة أو أكثر قليلا قامت السيارة تنهب الطريق نهبا.. لم نتبادل فيها الكلمات إلا قليلاً.. وأمام منزل ينم عن ثراء أصحابه هبطت.. فاستقبلتني سيدة المنزل ورب الأسرة وبعض المعارف والأصدقاء.. ثم أدخلوني في حجرة نوم وجدت في سريرها حسناء الوجه تشكو من بعض الإصفرار الذي لحق بلونها والهزال الذي تعاني منه في نومها يقول: طلبت السجادة ومعرفة اتجاه القبلة وصليت لله أربع ركعات وما أن فرغت من صلاتي حتى تحدثت إلى الفتاة.. فعرفت أنها متزوجة من قريب لها لا تريده .. وتريد أن ترتبط بآخر تحبه..

وبعد أن هدأت البنت وطلبنا ربة المنزل التي أبدت استعدادها لأن تفعل أي شيء من أجل أن تشفي ابنتها.. وبعد أن طلبت منها في شبه أمر أن تساعدها في محنتها.. وأن ترتبط بمن تريد وتهوى بعد أن تترك زوجها الذي لا تريده..

.. ولم أترك المنزل إلا بعد أن وعدتني أمها أن تقوم بهذه المهمة.. في الطريق عرض علي مرافقى أن أحصل من محفظته التى أعطاني إياها على ما أريد – وبعد تردد حصلت على ٢٠ جنيه كنت في حاجة إليها لكي أشتري الكيماوي والسماد للأرض..

وأمام العزبة تركتني السيارة ثم عادت أدراجها.. أما أنا فقد تنفست الصعداء.. وذهبت إلى المنزل لا ألوي على شيء...

عندما سافرت إلى باريس بعثت بكروت معايدة لبعض (أصدقاء) ومنهم الشيخ شحاته اخترت أن أبعث له بكارت به كنيسة نوتردام لأنني أعرف أنه كان متفتحا وسوف يتقبل هديتي له..

لكنني فوجئت بعد أن عدت في أجازة أنه مازال يحتفظ بالكارت وقال لي في لوم لا يخلو من عشم : كيف ترسل إليّ كنيسه وأنت تعلم أنني رجل دين مسلم.. ضحكت وقلت له : لم أجد سواك يا عم الشيخ يمكن أن يفهم هديتي.. فالدين لله.. يستوي في ذلك الدين الإسلامي أم الدين المسيحي أم الدين اليهودي أليس كذلك؟!

فهز الشيخ شحاته رأسه وقال: صدقت.. صدقت! لكن ما لم أستطع أن أفهمه.. فهو علاقته بزوجته الثانية وتدعى «نانوس» كانت تثق فيه ثقة عمياء.. ولا تتحدث عنه إلا باحترام شديد وتسميه «أبي شحاته».. ويقال أنها كانت تتردد على الموالد.. وقد تعرف عليها الشيخ شحاته في أحد هذه الموالد.. وبعد ذلك اتفق معها على الزواج وأن تأتي معه في منزله المتواضع.

.. وكانت نانوس متزوجة من سائق توفاه الله وترك لها سبع أطفال.. كانوا جميعا يرون في الشيخ شحاته والدهم.

وما اندهش له أنه كان يضـربها حتى كاد في إحدى المرات يشـق رأسـها.. لكنها كانت تتمسـك به وتقول له.. افعل بي ما تريد يا أبي شـحاته: وكان هذا سـر دهشـتي.. لأنني لم أسـتطع فهم العلاقة بين هذا الرجل وتلك السيدة..

***

وبعد أن أمضـيت في باريس عشـرين عاما عدت.. وسـألت عن الشـيخ شـحاته فقالوا أنه قد مات وشـبع موتا.. فتذكرته وتذكرت المولد الذى كان يساهم فيه –مولد النبي- ثم مولده في المقابر الذي كان يحييه وسـط محبيه.. ورواده من المشـايخ والباعة الجائلين.

لكنه كان يقيمه عاما.. ويتركه أعواما أخرى ولم يستطع أن يكسبه عادة الانعقاد سـنويا.. ولذلك اندثر المولد النبوي بعد أن مـات وبعـد أن توفى خليفـة أهـل العزبـة وهو الحـاج محمود وطفة.

ورحل الرجل ولكن سيرته الطيبة ما زال يتذكرها أصدقاؤه وكاتب هذه السطور من بينهم.

(٨) أبناء العزبة..وسلم القيم الذي تغير!!

.. هذا الموضـــوع ظل يشـــغلني مدة طويلة.. وكنت كلما تذكرته أقارن بين ما آل إليه حال العزبة مقارنة بأحوالها في الأعوام الخوالي..

.. وأتذكر أيضـــا الخطابات التي كان يبعث بها ابن عمي الذي كان يحدثني في حزن شديد عن التغيير الذي لحق ببعض أفراد العزبة من الشباب في ذلك الوقت ـ فبدلاً من ذهاب الناس مســـتبشـــرين خيرا إلى حقولهم مبكراً كما اعتادوا.. كانوا لا يصـــحون من النوم إلا بعد أن تقترب الشـــمس من منتصـــف الســـماء.. ويضـــع نفر منهم جهاز الكاســـيت على كتفه رافعاً صـوته بأغاني «ليلى نظمي وعايدة الشـاعر» تصـدح منه في غير مبالاة.

أقول كنت أحزن لهذه الصـــورة التي أبدعها المهندس أحمد ابن عمي في خطاباته.. حتى شـــهدت إلى أي حد قد تغير سُـــلم القيم في العزبة..

فأذكر مرة أني هبطت إلى العزبة في أجازة من باريس.. فلحق بي وأنا في طريقي للذهاب إلى القطار رجل طيب من أبناء العزبة كنت أحترمه وأقدر علمه.. فهو كان من القلائل الذين يقرأون الصحف ويصلون بالناس في المسجد لأنه يحفظ القرآن.. وأشـــهد أن أخلاقه كانت هي أخلاق القرآن أو على الأقل كان يحاول أن يكون كذلك.

كـان الرجل يمتطي حمـارتـه.. وطلـب إلـيّ أن أكون أمـامـه على الحمار.. وأمام إصـــراره وافقت وركبت معه.. وتذكرت أن أهالي العزبة كانوا يثقون فيه لأنه قارئ ومســـتنير وحافظ للقرآن الكريم..

حدث أن مر علينا في الطريق سـيارات منها سـيارات أبو جلال.. ومن بينهـا سـيـارة أخرى – ربع نقـل – من قريـة مجـاورة.. ولأن الطريق لم يكن معبداً أو مرصـوفـا كـانـت السـيارات المارة علينا تثير بعض الأتربة وراءها.. شـاءت الأقدار أن تصب زوابعها علينا.. فاندهش الرجل الطيب لذلك.. وقلت له.. هل تعرف أن من يركب هذه السيارة هو شقيق فتاة صغيرة تزوجها أحد عجائز الكويت. وكان الثمن هذه السيارة المشبوهة التي أعمتنا بالتراب! فقال الرجل، يا بخته بدلاً من أن يركب حمارة كحالنا.. يركب الآن سـيارة! قلت دون أن أنظر إليه.. لكن يا حاج أنت تعرف أن الثمن غال كثيراً.. فقد باع هذا الأخ أخته الصغيرة وأحسب أنه لا يدري ماذا فعل بها ومعها هذا الكهل الكويتي! (هذا الشاب كان من قرية كفر الشيخ عطية جاء لي الأهرام لكى أشهد على الزواج فى شارع زكريا أحمد)

ثم استطردت أقول.. لقد حدثتنا بعض الصحف عن كوارث تحدث بين الفتيات المصريات وبين هؤلاء العجائز.. وبعضهن كانت مصائرهن مجهولة!

فأدهشـني أن الرجل الطيب الذي كنت أركب أمامه قال بصوت عال: يا أستاذ.. هو أنا هاجوز البنت.. وأضمن في ذات الوقت بختها! سـيكون حالي. أني جوزتها وخلاص! أنا أنعم بالسـيارة الربع نقل.. كما ينعم هذا الشـاب الذي كان بعُد عن ناظريّنا.. هنا لم أجد سوى أن اعتذرت للرجل الطيب وطلبت منه أن يوقف حمارته.. لكي أنزل..!

ورفض الرجل في البداية طبعاً.. لكنه أمام إصـراري وافق وسار ربما لا يلوي على شيء.. أما أنا فظللت أحوقل وأستعذ بالله من الشيطان الرجيم وأكاد أضرب أخماسا في أسداس..

.. إذ لم أصـــدق أن رجلاً يحفظ القرآن الكريم في صـــدره يتكلم بهذه الطريقة العابثة الماجنة التي لا ينظر فيها إلا إلى نفسه فقط مضحيا بأرواح أهل القرية والقرى المجاورة...

وتيقنت في ذلك الوقت أن سـلم القيم قد تغير.. بل شـبع تغيرا.. فاللون الأبيض الذي كان يُجمع عليه الناس أصـبح أسودا بإجماع الناس أنفسهم.. ولا عزاء للأخلاقيات التي تربينا عليها.. وأشـهد الحق أن العزبة منذ هذا التاريخ قد تغيرت تماما..فبدلا من الحديث عن القيم والسـلوكيات الربانية وذكر الرسول الكريم ﷺ في كل المناسبات أصبحنا نضع في مكانها.. المنافع الشـخصـية وتغير كل شـيء حتى الرجال الذين كانوا يعدون مُستنيرين في القرية..ولنا الله من قبل ومن بعد!

(٩) الناظر والمجاري وحكاية الوضوء!

ظلت هذه المشكلة تملأ عقول وصدور أبناء القرية ردحاً من الزمن ربما لأنها تتعلق بالوضوء والصلاة والمسجد الذي كان وحيداً في القرية..والمشـكلة في بدايتها أن صـاحب العزبة وهو الكونت عزيز دي صعب كان قد بنى ثلاثة أشياء: مسجد يصـلي فيه أهل العزبة بمئذنة جميلة في ذات الوقت.. ثم مقابر بعد أن سلخ من قطعة زراعية مساحتها ستين فدانا عشرة أفدنة فقط لتكون جبانات لأهل القرية كان أول شـخص دُفن فيها هو المرحوم الحاج عبد الحي.. وتسـمى هذه المقابر بالسـتين حتى اليوم نسبة إلى حوض الستين الذي اقتطعت منه.. ثم المدرسة أو الكُتَّاب الذي كان يطالب بها بعض أفراد العزبة.. لكن ناظر العزبة كان يرفض ويرى وهو السـاكن الوحيد في بيت من الطوب الأحمر والخرسانة المسلحة – أن كل ما تركه الكونت بعد وفاته هو ملك له وحده.. والمدرسـة كانت من بين هذه المتروكات..

ولابد أن أعترف بالحقيقة على الأقل كما عرفتها – أن ناظر العزبة سامحه الله – كان قد مدّ مجاري السرايا – هكذا كنا نقول عن بيته إلى جدول صغير يمر من أمام المسجد وكنا نتوضأ منه عبر سـلالم تنزل إليه لأن العزبة في ذلك الوقت لم يكن بها مياه مرشحة (جاءت بعد ذلك)

فكأن مياه الوضـوء كانت ملوثة من مجاري الناظر المحترم. وقد تطوع بعض الناس الذين كانوا على صـلة به لكنه كان يستمع إليهم لكن لا ينفذ شيئا..

فمثلا كان يرفض إعطاء العزبة «المدرسـة» بالتُخت الخشبية التي كانت بها.. كما يرفض أن نعدّل مسار المجاري.. فبدلاً من أن تكون في الجدول قبل مكان الوضوء.. كانت المطالب ترى أن يمدها لبعد مكان الوضـوء.. ولأن ذلك كان معناه أن تزداد تكلفة الحفر.. فكان يرفض الرجل! وظل الناس في القرية والمترددون على المسجد في أوقات الصلاة الخمسة يتوضأون في هذه المياه الفاسـدة.. وظل الناظر الذي كان يركب حنطوراً بزوج من الخيل ثم سيارة مرسيدس بعد ذلك سادراً في غيّه!

.. لقد ظل هذا الحال سنوات وسنوات.. وتفشى في القرية مرض الفشل الكُلوي.. وأمراض البطن.. وحصد الموت بعض أهالي القرية لكن لم يرق قلب الناظر وظل متمسكا برأيه..

وعندما مات هذا الرجل بعد عذاب طويل مع المرض اعتلى ابنه (محمد) الذي كان محاسـبا.. ومعروفاً عنه طيبته وثقافته العريضة مكانه كناظر بالوكالة.. وأشهد أن أول شيء قام به هو إيقاف مجاري السرايا.. كما أعطى مبنى المدرسة أو الكتاب إلى أهل القرية.. أما التُخت الخشـبية فكان والده يرحمه الله.. قد قام بتفكيكها وعمل طاولات كثيرة من خشـبها وبالتالي اسـتلم أهل القرية المدرسة خاوية..

وأشـــهد أن النـاظر الكبير كـان لـه أربعـة أولاد.. لكن لم يسـتجب.... لمطالب أهل القرية سـوى ابنه الصـغير الذي كان يعيش في العزبة ويعتبر نفســه من أهلها.. وكان يعرف مطالب أهلها لكن لم يسـتطع أن يفعل شـيئاً وترك والده يتصـرف كما كان يحلو له..

وما أذكره أن الناظر كان يضـــيء لمبة كهربائية تديرها ماكينة كهرباء وقد اشــتراها ووضــعها داخل الســرايا.. وكنا نلعب في ضـــوء هذه اللمبة التي كانت تســطع بنورها على الشارع الرئيسي في العزبة.. وأذكر أننا كنا نستحم في التراب الذي كان يعلو من تأثير لعبنا وأقدامنا الصــغيرة.. ولأن كل شـــيء في طريقه إلى الزوال فقد تحولت الســرايا بحجراتها الكثيرة إلى مخازن يستفيد منها الإصلاح الزراعي الذي أنشأته ثورة عبد الناصر!

(١٠) خالتي حفيظة.الهبلة!

دخلـت ذات يوم على أمي –يرحمهـا الله- فوجـدتهـا تبكي وتنتحب.. انخلع قلبي لهذا المنظر.. واقتربت منها وحاولت أن أمســح دموعها وأفهم لماذا كل هذا البكاء. وســألتها بقلق: من سبب لك هذا الحزن الذي يبدو أنه يكسو كل وجهك؟

فقالت أمي وهي تعيد ترتيب بعض الملابس:

خالتك حفيظة يا بني.. يلتف حولها أطفال القرية ويعبثون بملابسها فتضطر أن تجري أمامهم فيقولون في مجون: حفيظة الهبلة.. أهى!!

وهي تنتظر وراءها في خوف وتقول لهم: امش يا ولد انت وهوه.. أنا مش هبلة!

تقول ذلك –يا بني- بينما تسقط على الأرض من شدة الإعياء.. والحكاية روتها أمي –رحمها الله- عندما هدأت.. قالت: كانت خالتك حفيظة من أكثر ستات البيوت كرما.. تعطي السائل.. وتمسح دموع اليتيم ولا تدخر شيئا..فكله لله.

كبر أولادها.. وتزوجوا في المنزل الكبير.. وتوفى زوجها الذي كان من أعيان القرية.. وأصبح الابن الأصغر في مكان والده.. يعطي أخوته الكبار بعض النقود.. لشراء الدخان أو الشاي والسكر.. ولا يسير الابن الأصغر إلا مع كبار رجال القرية تيمنا بهم.. ولم لا؛ فقد كانوا أصدقاء والده.

وتسترسل أمي –يرحمها الله- في حكايتها فتقول: ظلت خالتك حفيظة في غرفتها.. لا يسأل عنها أحد.. وبعد يومين أو ثلاثة وبعد أن شعرت بالخجل من زوج ابنتها الذي كان يسكن بالقرب من منزلها.. خرجت خالتك حفيظة وأخذت في حياء شديد تطرق باب ابنها الأصغر تسأله بعض الطعام.. فانهال الابن الأصغر عليها ضربا لأنها أزعجته وقال لها بصوت عال انت امرأة هبلة! ثم دفعها على الأرض وأغلق الباب ولم يعطها شيئا..

بلعت خالتك حفيظة الإساءة.. واتجهت إلى ابنها الثاني فالثالث فالرابع.. والمؤسف أنها لم تلق منهم سوى الإهانة تلو الإهانة وبعد أن قرص الجوع معدتها.. خرجت خالتك حفيظة إلى المزارع القريبة وأخذت تأكل ما تجده من طماطم وفول أخضر وخيار..

- أما أولادها الأعزاء فكانوا يتكومون على زوجاتهم وأولادهم يأكلون اللحم والسمك..دون أن يفكر واحد منهم في أمه المسكينة..

صمتت أمي في حزن وأضافت تقول: ما كان ينصرف على الأكل ينصرف على ملابس خالتك حفيظة التي نسيها أبناؤها في الأعياد والمناسبات الدينية واستحالت أطراف ملابسها السوداء إلى اللون الأخضر.. وكانت إذا تقطعت ملابسها من شدة القدم تقوم بربطها بأقصوصة تجدها في الطريق أو تبحث عنها عند الخياطة التي كانت تسكن بالقرب منها..والغريب أن ابنها الأصغر كان يتطاول عليها في كل وقت.. ويسبها سباً وكان مجرد ذكر اسمه أمامها مبعثا للخوف منه.. وقد عرف أطفال القرية هذا الشيء فكانوا بعد أن يهتفوا: حفيظة الهبلة أهى يقولون..ابنك جه.. ابنك جه!

فكانت خالتك حفيظة تجري وتقع في الترع والمصارف خوفا من ابنها.. قالت لي أمي ذلك ثم انخرطت في بكاء كبير..

الغريب والعجيب أن خالتي حفيظة ظلت على هذا الحال.. لا تخرج إلا ليلاً وتحت جناح الظلام لتأكل من الحقول.. وتعود في صمت خوفا من ابنها.. الذي لم يتورع عندما ماتت أن يأتي بخيام ومقرئ كلفه الكثير من المال الذي كانت في حاجة إليه خالتي حفيظة في حياتها..

لكن المؤسف أن ابنها الكبير لم يكن له في الأمر حيلة وكذلك ابنها الثاني فالثالث.. وشاءت الأقدار أن يتعذب ابنها الأصغر في حياته.. ويقال أن الله سبحانه وتعالى أصابه بمرض جلدي كان يجعل كل الناس تبتعد عنه والغريب أنه لم يجد له دواء.. وظل يدمي حتى مات..

(١١) الكوبري.أجمل مكان في العزبة:

.. كان الكوبري (القديم) الذي يربط العزبة بالحقول.. هو أجمل مكان أجلس عليه.. أين منه تيراس مقاهي حي الشانزلزيه في باريس الذي أدمنت الجلوس عليها في سنوات غربتي وشبابي المبكر...

ولأن العزبة كانت خالية من أية إضاءات.. حيث لم تكن الكهرباء قد وصلت إليها فكان الكوبري من أحب المناطق التي نجلس فيها.. وكذلك الشيء بالشيء يذكر – كان محل الأسطى عطيه حسن من الأماكن المفضلة إلينا.. نتركه يقوم بقياس وحياكة الجلاليب ونظل حوله وحول البانك – الترابيزة الكبيرة في المحل – نقرأ مجلة....«الجديد» التي كان يرأس تحريرها الدكتور رشاد رشدي.. ومجلة صباح الخير وروز اليوسف التي كان يرأس تحريرها الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي.

.. وكنا نأكل البطيخ وكذلك الكنافة في رمضان في محل الأسطى عطيه بوجود الزميل القديم حامد السقا والأسطى عوض الزميتي يرحمه الله..

لكن يمكن أن أنسى كل شيء ما عدا ذكرياتنا على كوبري العزبة الذي كنا نذهب إليه.. أحمد اللاوندي ومحمود هلال ومحمد رزق وأنا (أما عاطف عوف فقد ذهب إلى شربين بعد الابتدائية العامة..) وأذكر إنه كان برفقتنا الأسطى عطية حسن والأسطى عوض الزميتى والأخ خليل أبو زغلول... وكان الأسطى عوض يضحك عليه بألاعيبه البريئة ويقنعه بلعب (سلخ النعجة).. وبعد أن يوافق خليل كان عوض يقوم بنتف شعر صدره.. ويقول له لن أتركك إلا بعد أن تذكر لي العشرة الشايبين في العزبة.

وكان خليل يصــرخ في كل مرة يحاول عوض أن ينتف له شعره..ويبدأ في تذكر الشايبين.. وكنا نقع على الأرض من شدة الضحك.. وكان خليل لكي ينجو من العذاب يذكر خالتك ستيتة وخالتك شــلبية أم عبده الســقا وخالتك أم العز أم عبد اللطيف وطفة.. وكانت بقية الأسماء يرفضها عوض باعتبارها ليست من الشــايبين.. في أيام أخرى كنا نلعب لعبة «عركب يا عركب..شــد واركب» ثم طاقية الإخفاء.. وأذكر أنه في إحدى المرات كنا نسـمع صـوت موسـيقى ينبعث من قرية «بوشــه» المجـاورة.. فنتجـه إلى هنـاك.. لنجد أن الفرح الـذي كـان .. انتهى.. فنعود إلي العزبة مرة أخرى بعد أن يدخل الأسـطى عطية حسـن الدواوير المتناثرة على يمين ويســار الطريق المؤدي إلى بلدة «بوشة»..

.. ومرة أخرى ذهبنا وراء صــوت الموسـيقي الذي كان يـأتينـا عبر الهواء من قريـة عبد الله ذكي ... وهنـاك نجد من يتعرف علينا ليكرم وفادتنا ويطعمنا ويسقينا..وكنا نسعد بذلك

مرة أخرى كنا نستعد للذهاب إلي مولد قرية الفشـاشـة التي هي في الأصــل قد وُلدت من عزبة المهندس.. فكل ســكانها نعرفهم وكانوا من سكان العزبة واستوطنوا هذا المكان ليكونوا قريبين من مزارعهم وحقولهم...

يبقى أن أذكر أنـه أتيح لي أن أجلس على تيراس مقـاهي شــهيرة بالقرب من جادة الشــانزليه.. والبيكاديللي في لندن ومحمد الخامس (في المغرب) وبو رقيبة (في تونس)..فلم أجد أجمل ولا أحلى ولا أطهر من بغلـة الكوبري التي كنـا نجلس عليها كل مساء مع شباب من أبناء جيل الرواد..

(١٢) مولد النبيّ وزيارة عبد الناصر!

يمكن أن يتبخر كل شيء بالنسبة لطفولتي في العزبة ويبقى شيئان ظلا محفورين في عقلي حتى هذه اللحظة: الأول: مولد النبيّ الذي كان المناسبة الدينية الوحيدة التي يحرص كل أبناء العزبة على إحيائه..

ومازلت أذكر أن الحاج محمود أبو وطفة – خليفة المسلمين في العزبة- كان يقف في الفرندة أمام دكان البقالة الوحيد في العزبة.. ويطلب من المارة من أبناء العزبة نصيب كل منهم في إحياء هذه المناسبة.. وكانت هذه الحصة لا تزيد عن جنيه واحد أو جنيهان.. وأحيانا خمسون قرشا..وكان يوزعها الحاج محمود بين ثمانية جنيهات للشيخ الصبيت وكان اسمه ـ إذا لم تخنى الذاكرة ـ الشيخ عبد المعبود.. وأخرى اسمها الشيخة عصمت.. وكانوا من المداحين المشاهير في حب رسول الله ﷺ.

وكان المولد مناسبة طيبة للجميع يأتي إليه الباعة الجائلون من كل فج عميق.. وكان كل بيت من بيوتات العزبة يقوم بإخراج صينية عليها كل ما لذ وطاب ثم يضعونها علي القش الذي كان يضعه الناس علي الأرض ثم تكون هناك صينية أخرى بالمشوى والمحمر داخل كل بيت يلتف حولها سكان المنزل إلى جانب بعض الضيوف مثل زوج الابنة أو الابن الذى يسكن قرية مجاورة.. وأهم ما يميز هذه المناسبة أنها كانت مناسبة سعيدة للجميع.. الكل يبتسم وهو راض عن هذا المولد..

ولم يكن أحد يتوقع أن تنتهي هذه المناسبة أو تندثر إلا أنا الذي كنت أرى أنه سوف يأتى اليوم الذي لا يقيم فيه سكان العزبة هذه المناسبة.. وقد حدث ذلك بالفعل دون أن يأسى أحد عليه؟

وقد حاول أحد شـيوخ العزبة الدينيين (الشـيخ شـحاته) أن يقيم مولد لنفسـه في المقابر لكن بعد عام واحد انتهى كل شـيء لأن الشيخ شحاته لم يجد من يتعاطف معه أو يعاونه في إقامة هذه المناسبة

الشــيء الثاني الذي لا أنســاه ما حييت هو زيارة الرئيس جمال عبد الناصــر لمدينة دمياط.. كل ما أذكره أن ناظرة المدرسة في قرية الصبرية المجاورة طلبت أن نلبس أحسن ما عندنا ونقف صــفا واحداً على رصــيف القرية المؤدي إلى دمياط.. وأذكر أنهم كانوا يرفعون صــور الزعيم الخالد جمال عبد الناصر وكان المكان يكتظ بالناس من كل حدب وصوب..

وبعد أن مر الرئيس قالوا أنه كان في القطار المتاخم للطريق السـريع... وكان يشـير بيده لنا.. هذا ما قالوه.. لكننا لم نره..وظللنا نروي هذه الواقعة كما لو كنا قد شاهدناه.

وكنا فرحين لأن عبد الناصر هو الذي أنشأ لنا – نحن أبناء الفلاحين.المدرسـة الابتدائية ضـمن الشـعار الذي كانت ترفعه ثورته وهو: مدرســة ابتدائية كل ثلاثة أيام وكتاب كل ســت ساعات.

وقد جمعت هذه المدرسـة أبناء القرى المجاورة فإلى جانب الصــبرية. كانت هناك عزبة المهندس ثم عزبة الجندي وتلي ذلك عزبة العبد.. وعزبة لبيب.. وكان يمتلك عزبة الصــبرية رجل شــديد التهذيب اســمه مظهر أبو العز.. وكانت زوجته السيدة أمينة من الموظفات في حقل التربية والتعليم وكانت تمر على مدرسة الصبرية وتقدم لها خدمات كثيرة.

وقد تأسست هذه المدرسة بفصلين في البداية أولى ابتدائي وثانية ابتدائي وكانت ناظرتها الأولى تدعى قدرية أما أشهر مدرساتها فكانت السيدة زينب راشد.... وأبله نفيسة.. وأبلة إيلينا نسيم ثم أبله سعدية وأبله سنيه. ولولا هذه المدرسة لما نلنا تعليمنا الابتدائي.. والحق أن لها أياد بيضاء على الجميع والفضل في النهاية لشيخ الناحية الذي تطوع بتأجير منزله ليكون مقراً للمدرسة.. هذا الشيخ اسمه أحمد شوشه.. الذي لم يشأ أن يضيع الفرصة وتفلت المدرسة..

(١٣) جمعية رعاية:

.. تعلمت في باريس التي أمضيت فيها عشرين عاما بين دراسة وعمل أن الذى يقود العمل التطوعي.. هم الأفراد.. فتحمست لفكرة إنشاء جمعية غير حكومية شجعني عليها محافظ الدقهلية وقتئذ اللواء سمير سلام.. والأستاذ محمد الدكروري الذي عرفت -فيما بعد- أنه دفع من جيبه الخاص لتسهيل إقامة وإشهار هذه الجمعية التي تأسست تحت رقم ١٨١٣ لعام ٢٠١٠..

وجاء محافظ الدقهلية لحضور حفل مهيب لتدشينها وبحضور الصديق الصيدلي د. حسين خضير.. وكان استقبالا شعبيا أحسب أن الرجل ما يزال يتذكره بامتنان..

وحضر وفد من ألمانيا.. أعجبته الفكرة وتطوع بعض الأطباء فيه لزيارة المركز الطبى..

وأشهد أن صديقي عطية حسن هو الذي أوعز لي بالفكرة ووقف كعادته بجوارها حتى انطلقت.. وأصبحت حقيقة ملموسة ثم اختفى بعد ذلك كعادته!

.. وتجمع نفر من شباب عزبة المهندس أمثال الحاج حمزة شـويقة والمهندس محمود هلال وفايز الشـرقاوي، وعماد المناوي وكارم محمود وشـجعوا المركز الطبي الذي كان يزوره أطباء من جميع التخصصات..

وبالتعاون مع عبد الجليل وطفة ومنصـور العراقي انطلق المركز وكذلك معمل التحاليل الطبية بإشراف د. سيد صلاح.. ثم أنشأنا حضانة لغات حضرها على الأقل ٦٠ فرداً.. وقام محمد عبد الله بإعطاء دروس تقوية في بعض المواد.. وتعاقد المركز مع سيدة من قرية شربين لتحفيظ القران.. أما معمل الكومبيوتر فلم يستمر لأن عملية إصلاح أجهزة الكومبيوتر لم يعرف أهل العزبة التعامل معها..

.. وقمنا بعمل فرن نصف آلي، يقدم ستة آلاف رغيف يوميا ..... لتصبح سبعة آلاف.. وتكفلت الجمعية بشراء معداته لحساب العزبة.. وجاء أحد أبناء الغربية. وأقنعني بعمل توكيل لأحد أقاربه.. فقمت بذلك على اعتبار أنني أستطيع إلغاء التوكيل في أي وقت..!

وتناوب في عمل الفرن ثلاثة أشخاص هم عبد المقصود سعيد وربيع الخميسى ثم أحد الملتحين السلفيين..

واتجهنا لعمل مسـجد تكلف مبلغا كبيرا من المال لم يدفع أي واحد من العزبة فيها مليماً واحدا منه.. وقامت أسـرة البدوي العراقى بالإشـراف عليه كما تولى الخطابة فيه الأستاذ رضا العراقى أيضا..

.. ثم تحدثت مع هيئة قصـور الثقافة وخصصـنا مكانا في الجمعية ليكون مكتبة يشرف عليها الأستاذ علاء.. ويتقاضى مرتبه من الهيئة.. لكن لم يزرها إلا القليلون. وأقطع بأن العزب المجاورة سوف تتقدم وتتخلف عزبة المهندس لأن أبناؤها لا يقرأون.. وسوف يندمون..!

.. وبعد أن توليت منصـــبا جديدا.. ابتعدت رويدا رويدا عن العزبة وتركت الجمعية للحاج حمزة شويقه ونفر من أبناء العزبة المســـتنيرين.. ثم أغلقت لاحقا الحضـــانة والتحاليل والدروس وتحفيظ القرآن وتركت الفرن الذي خطفه البعض وأعطى درســا في العقوق للآخرين.

وتركت كتيبة الجهل يقودها أنصاف المتعلمين.. وتفرغت الى عملي الجديد غير عابئ بأحد وسوف يندم أنصار «كتيبة الجهل» الذي لم يتبرع واحد منهم بشـــئ. بل بالعكس أخذوا ممتلكات العزبة لمصلحتهم الشخصية والدليل على ذلك أرض المدرسة!!

***

(١٤) أنصاف المتعلمين!

.. بعد ثورة ٣٠ يونيو التي قام بها الشـــعب ضـــد النظام الأوتوقراطي وانحاز الجيش الوطني المصـــري إليه.. تغيرت مفاهيم كثيرة.. منها نظام القيادة.. فلقد درجت العادة على أن يقود المسيرة في العزبة.. رجال أشداء لا يخشون في الحق لومة لائم.. وكانوا يتبرعون من مالهم الخاص ولا يترددون في بذل الغالي والنفيس.. ولا يبحثون عن منصب أو جاه.. رغم أنهم لم ينالوا إلا العلم الرباني.. فكانوا أكثر تواضــعا وكانوا قريبين من الناس كما كانوا دائما في المقدمة..

اليوم.. نظر البعض إلى هؤلاء من نـاحيـة الشـــكـل فقط.. وأرادوا أن ينصــبوا أنفســهم قادة بالعافية.. ونســوا أن يضــربوا المثل في التبرع أو الغيريـة وهي عكس الأنـانيـة.. لم يتقدموا المسيرة في أي شيء..!

وكما قال عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: أعرف الخير تعرف أهله! حاولنا واجتهدنا أن نعرف الخير.. فلم نجد أثرا لهؤلاء إلا كموظفين بأجر معلوم عند أصحاب الخير!!

العجيب والغريب أن أمثال هؤلاء حصلوا على شهادة جامعية كنا نقوم بالتدريس لأمثالهم.. المؤسف أنهم يعيشون بين الناس بعقول لا نشعر أنها تعلمت في الجامعة! وكأنهم أنصاف متعلمين قولاً واحدا..

فعندما أرادوا أن يدفنوا سلوك الكهرباء لخدمة أسرتهم دفعوا فوق أموال القرية أموالاً أخرى.. وظفوها لخدمة الأسرة.. فكأنهم ..... برعوا توظيف الصالح العام لصالح أسرتهم!

وعندما أرادوا أن يأخذوا مدرسة العزبة لصالحهم فتحوا فيها بابا وظنوا أن القرية بشيوخها وشبابها أيضا لن تتهمهم بشيء!.. فلقد حصلوا علي وعد شفوي من أحد الموظفين الصغار في المدرسة وفعلوا ما يحلو لهم.. ولم يفكر هذا الشخص أو ذاك في الصالح العام.. وعندما بني أحدهم في أرض الإصلاح الزراعي.. وحصل على أم وال لا أساس لها من الصحة.. وبنى بيتا لم يسأل نفسه عن قانون من أين لك هذا الذي سنته الثورة يوما..

لقد باعوا القرية لأغراضهم الشخصية وصمت الجميع وأصبحت القرية بلا صوت وإرضاءاً لمن يظن نفسه قائدا بالعافية..

***

كنت مرة في القرية فإذا بأحد هؤلاء الانتهازيين يقفز إلى سيارتي ويطلب. يتوسل أن أتحدث مع رئيسه في العمل لكي أقنعه بأن هذا الموظف في حاجة إلي أن يدخل قرعة السفر وأن أوهمه بأنه ابن خالتي.. وقد فعلت لأن الخير يجب أن يذهب إلى الجميع وكتبت في أحدى الجرائد عن هذا الموضوع..

ومرة أخرى تحدث معي أحدهم في أمر أن تكون زوجته ملحقا تجارياً في إحدى السفارات وعليّ أن أتحدث مع من يهمه الأمر.. وأعطيت له كتابا عن العولمة.. لأن الامتحان للخارجية لن يكون خالياً من هذا الأمر..

باختصار لم أسمع أن مكانا قد تبرع به هذا الشاب الذي نسي أنه لن يضرب الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً!

ولم أسمع أنه تبرع بأرض أو بمبلغ من المال.. وحسبه أن يقوم بالعمل كموظف لدى أحد أبناء العائلة الذي تطوع بالخير لأهله ولم يملأ قلبه حقدا إلا على هذه العائلة التي قيض لها الله سبحانه وتعالى من أبنائها من يكون حنانا ومنانا شأنه في ذلك شأن كل الأخيار ومحبي الإحسان!

لابد أن أعترف بأن أجيال العزبة اللاحقة منهم أناس يفهمون جيدا قراءة الأحداث ولا تغرهم المظاهر.. وأن كثيرين من بينهم يعرفون جيدا كيف يتاجر هؤلاء باسم القرية.. وسوف يحاكمون هذا الشخص أو ذاك.. لأنهم حولوا الصالح العام إلى خاص..

ونحن جميعا على عتبة مقابلة الله سبحانه وتعالى.. أتساءل:

● ماذا فعل هذا الشـــخص.. وهل من حقه أن يوظف أرض المدرسة لصالح أسرته.. وما هي أموال القرية التي دفع فوقها وجعلها خالصة لأهله؟

● بأي شيء تبرع هذا الشاب.. وماذا فعل للعزبة غير الأنانية التي أصبح فيها مثالاً يُحتذى؟

● أين هذا الأناني من جيل الروّاد الذي حاول بأســـاليب أخطوبطية عنكبوتية أن يركب عليه؟

هيهات أن يحدث ذلك وإن وجد ضـــالته مع أحدهم.. فلن يجده مع الشـــخص الثاني أو الثالث. – ثم ســـلوا هذا النصــف متعلم: لماذا لا يجعل أولاده يأخذون دروساً قرآنية في المدرسة أو في القرية.

أنه يحتقر القرية وشيوخها وشبابها ولا يعترف بالمدرسـة إلا أرضا مشاعا له.. ولأسرته..

إن هذا النصف متعلم جاهل.. لم يقرأ كتابا واحداً في حياته.. وعمل بعد تخرجه من كليته موظفا صغيرا في إحدى مؤسسات مصـر. وقد سر البيت أخذ أمواله من هذا الشخص أو من ذاك بعد أن باع ضــميره.. ســألني مرة برجاء شــديد أن أكتب عنه وبعث لي بورقة نشـــرتها في مقالي بالأهرام.. ونفى ذلك بعد حين.!!

كتبت مرة عن الفســاد.. فظن أني أكتب عنه.. ونســي أنني أكتـب فقط عن عبـاس العقـاد وطـه حســين وتوفيق الحكيم وفيكتور هوجو.. وهدد بأن يضع ٢٠ شخصاً في ميكروباص.. ثم يكسـر زجاج الأهرام ولو علم أن ذلك سيضـعه في مسـاءلة قانونية لما فعل!.. إذا ما تقدمت شـكوى ضـده.. لكن حرصـا على والده الذي كان طيباً يعمل حارساً لإحدى ماكينات المياه.. وعمه الذي أحبه كما أحب أخي الأكبر رحمه الله.. وعلاقة المصــاهرة التي تربطنا.. واحترامي للقرية وأهلها.. تركته يهذي أو ينبح دون أن أبالي..

باختصار أن هذا النصف متعلم يعمل حاوياً في الغربة..

لكن الشــيء الذي لا يعرفه أن أموره قد انكشــفت على القاصي والداني.

(١٥) القرية ومشروع النادي!

.. كانت القرية في حاجة إلى فرن منذ عشرات السنين.. لم يتحقق إلا بعد أن كتبت مقالة في الأهرام المســائي.. فرد عليّ محافظ الدقهلية مؤكدا أنه يســتطيع أن يمدنا بدقيق الفرن يوميا لكي تنتهي معاناة سكان القرية الذين كانوا يحصلون على ألف رغيف فقط من بلدة الصبرية المجاورة.

واقترح عليّ محافظ الدقهلية أن أؤسس جمعية خيرية يكون الفرن تابعا لها.. وشــاءت الأقدار أن يعرف كل هذه التفاصـيل محمد الدكروري! وبالفعل أســســنا الجمعية.. ووافق الســيد المحافظ ســمير ســلام على صــرف حصــة الدقيق وكان من مسئولية أحد أبناء القرية على أن يكون مسئولا إداريا للفرن أما أموال الفرن فتوضع في حساب الجمعية.

كل ذلك تم دون تدخل من أنصاف المتعلمين!

ثم اعترض سكان القرية على المسئول الإداري واختاروا شخصا آخر.. لكنه بعد أقل من عام اعترض عليه سكان القرية.. هنا ظهر أنصاف المتعلمين الذين حاولوا –بشهادة محمد السقا- أن يخطفوا الفرن فذهبوا إلى القاهرة عدة مرات.. ولما يأسوا تماما توسل لي أحد أنصاف المتعلمين أن أقوم بعمل توكيل لأحد الملتحين.... في القرية.. وذهبت معه بدون نوايا شريرة إلى رأس البر وقمت بعمل التوكيل وعزمته من مالي الخاص مع أحد ضيوفه في محل بيتزا في رأس البر.. لكن ما حدث هو الآتي:

- المسئول الإداري والمالي عن الفرن طلب بنفسه أن يحصل على ألف جنيه شهريا..

ثم قام بالبناء فوق مبنى الفرن دون أن يسأل رئيس الجمعية كما قام بتعيين موظف صغير في المدرسة بمبلغ ٧٠٠ جنيه دون أن يخبره.. قام بخبز حصة قرية أخرى دون الرجوع إليّ..

حصل على ألف رغيف أخرى.. بعد أن اتصل بي المسئول في المنصورة وظن أنه بمفرده حصل عليها.. وهذا خطأ..!

باختصار لقد خطف هذا الشيخ الملتحي الفرن.. ونسي أنني أستطيع إلغاء التوكيل في أي لحظة وأستطيع أكثر من ذلك أن أنهي عمل الجمعية فتعود القرية لصرف مستحقاتها من قرية الصبرية، لكن حرصا على مصلحة القرية لم أفعل شيئا من هذا..!

الفرن في قبضة الإخوان.. وبمساعدة أنصاف المتعلمين الذين يتاجرون بالفرن ويخلطون أموال الفرن العامة بأموالهم الخاصة وهذا في حد ذاته.. يجعل أبواب السجن مشرعة أمامهم..!

.. ليس عجزا مني.. أستطيع منذ الصباح الباكر أن ألغي التوكيل وأخونا الملتحي لن يجد عملاً.. وكذلك يخسر النصف متعلم ما يتقاضاه شهريا من الفرن ظلما وعدوانا..!

سؤال أخير.. هذا ما فعلته جمعية رعاية.. أنشأنا فرن فماذا فعل هذا النصف متعلم.. لا شيء سوى سرقة حقوق الآخرين؟! ولابد أن تعرف الحكومة.. أين ذهبت أموال الفرن منذ اللحظة التي قمت بعمل توكيل فيها وحتى اليوم؟!

أما مشروع النادي..

في اجتماع جماهيري عام حضره من الجيل المحترم الحاج إبراهيم شوشه والحاج عوض العراقي.. تم الاتفاق مع إسماعيل العراقي على أن نأخذ عدة قراريط من أرضه مقابل ١٠٠ ألف جنيه ندفع منها النصف وندفع النصف الآخر بعد ثلاثة أشهر.

لكن كان النصف متعلم يريد أن يشتري أرض خاله في نهاية القرية... ولما رأيتها وجدتها لا تصلح.. فأضمر شيئا في نفسه.

مر أكثر من عامين ولم ندفع لصاحب الأرض سوى ٥٠ ألف جنيه فقط.. ثم احتال عليه وجعله يوقع عقدا آخر معه.. قام بتوثيقه دون علم مني.. وأكد أن صاحب الأرض تبرع به للنادي.. ومن خلال أحد الصحفيين الذى نشر ذلك. بتوقيعات قام بتزويرها.. النصف متعلم!

وأصـبحت قضـية أن نترك إسـماعيل العراقى بمفرده فيها ولكنه استعدى عائلة العراقي على عائلته..

باختصـار مثلما ظن أنه سطا على الفرن.. ظن أنه يستطيع أن يسـطو على الأرض التي ما تزال في ملك صـاحبها يزرع فيها ويقلع..

السؤال.. بماذا تبرع هذا النصف متعلم قبل أن يسطو على أرض الغير..؟!

القسم الثاني
تطبيقات

فعل «القراءة» فى خطر!

كان لعباس العقاد مقولة شـــهيرة مؤداها أن العقل الســـليم كالمعدة الســـليمة يقرأ كل شـــيء دون محاذير مثلما تمضـــغ المعدة كـل الأطعمـة دون قيود أو ممنوعـات وكـان يقول أن القراءة هي التى تجعل الإنسان يشعر أنه يعيش ألاف السنين، فها هو إذا قرأ فى التاريخ القديم أو المســـتقبل البعيد فكأنما طوّف بين هنا وهناك وعاش ألوف الســـنين: أما عميد الأدب العربى طه حســـين فكان يصـــف الرغبة للقراءة (بالشـــهوة) ويعتبرها قدرا محتوما على المثقفين، ناصـــحا إياهم بأن يقرأو كل ما تقع عليه أعينهم!

وكان جون بول ســـارتر فليســـوف الوجودية الأشـــهر فى فرنســـا والعالم يقول: « ما أن تقع عينى على ورقة بيضـــاء إلا وأشتهى أن أكتب فيها»..

أتذكر كل هذا التراث الخاص بفعل القراءة بينما أســـتدعى إلى الذاكرة تراثا آخر يجرّم القراءة بل وطبع ونشر

بعض الكتابات والنصـــوص.. ففى هذه الأيام رفع نفر من المحامين دعوي قضائية لمصادرة نسخ كتاب ألف ليلة وليلة، بل هناك من طالب بإعادة محاكمة كل من درس أو علم هذا الكتاب وعلى رأسهم جميعا الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) لأنها أعدت أطروحة للدكتوراه حول نفس الموضوع! ولســـت أدرى ســـببا لهذه الدعوى التى تجرّم قراءة كتاب ألف ليلة وليلة.. هذا الكتاب الذي يعتبره بحق بعض كبار المثقفين أحد عمد الثقافة العربية، بل واســـتوحي منه عدد كبير من الكتاب«أفكارا»ومواقف.. وأحسب أنه سيظل يلعب نفس الدور لولا أن هبط علينا هؤلاء المحامون بدعوى المنع والحذر والمصادرة..

والكارثة هى أن القراءة في حد ذاتها كفعل وســلوك فى مأزق حقيقى فلم يعد أحد يقرأ.. فى ضوء ثورة الاتصال التى يجسدها النت، والموبايل والرسائل الالكترونية. تبخرت القراءة تماما.. وأصــبحت- في أغلب الأحيان- أثرا بعد عين!.. وأحســب أن نصــيحة العقاد هي الأفضـــل فالعقل يجب أن يقرأ مرة فى الايمان ومرة فى الإلحاد، ومرة فى الأخلاق والاجتماع، ومرة ثالثة في التاريخ دونما محاذير من أى نوع.. ووحده هو الذى يســتخلص المعانى والدلالات وصــولا إلى صــوغ الأحكام والارتياح لقناعات ومسلمات.. أما فرض الوصـاية على العقل العربى فهو أمر ممقوت فضـــلا عن أنه مرفوض مهما كانت نوايا هؤلاء الراغبين فى فرض هذه الوصاية.. والأهم أن هناك أشـياء أخرى تسـتوجب التجييش والتعبئة ضـدها أكثر من فعل القراءة!!

العزبة في الأهرام:

- طه حسين في مدرسة «المهندس» الابتدائية

- قريتي عزبة الشهيد، المهندس سابقا

- آخر الأحزان: قرية الدقهلية تقدم خمســـة شـــهداء من أبنائها.

طه حسين فى مدرسة «المهندس» الابتدائية

لو قدر لوزير التربيـة والتعليم (الجديـد) أو مـدير التربيـة والتعليم في المحـافظـة، أو رئيس مجلس إدارة المركز، أن يزور مدرســة عزبة المهندس للتعليم الأســاســي بالدقهلية، لاكتشــف عجبا! فالأســاتذة في ناحية والتلاميذ في ناحية أخرى.

وأزعم أن أحـدا في المرحلتين الابتـدائيـة والإعـداديـة لا يعرف طه حسين صاحب شعار التعليم كالماء والهواء. بل إذا راق لأحد المســئولين أن يســأل أحد التلاميذ عن اســمه وكيف يكتبه فلن يعرف! والغريب أن هذا التلميذ قد نجح في المرحلة الابتدائية.. كيف ذلك؟ لا أحد يعرف!

المدرســة لا يدري بها أحد، يأتي المدرســون كل صــباح ثم يعودون محملين بأدوات الطبخ وقد انتهوا منهـا. و لا يدخل أحد إلى الفصول. والمنافسة بينهم على الدروس الخصوصية. بل أن إحدى المدرســـات أقســـمت أن من لا يذهب إليها في المنزل ليأخذ درسا خصوصيا. فلن ينجح!

أنه تهديد (عيني عينك). والناظر لا يأبه بكل ذلك. وباقي المدرسـين لا حياة لمن تنادي. أما إذا زار أحد المسـئولين في المركز أو المحافظة المدرسة. فلن يتحرك شيء. فالإمضاءات تتم في الدفاتر والتلاميذ في الفصول وحدهم. دون أن يفكر أحد من المسـئولين في زيارتهم أو سـؤالهم. وإلا لكانت الطامة الكبرى!

وإذا قدر أن يطرح أحدنا سؤالا على التلاميذ في المنهج أو خارجه. فلن يجد إجابة من أي نوع، لأن التلاميذ قد اعتادوا الراحة. أقول ذلك وأذكر أن إحدى المدارس الابتدائية في باريس قد دعتني مرة لزيارة المدرسـة والاستماع إلى إحدى المحاضـرات التي أعدها أحد الطلاب حول تأثير الثقافة الفرنسية في ثقافة اليونان الأقدمين.

في البداية ظننت أن أحد المدرسـين هو الذي سـيلقي المحاضـرة. ثم اكتشـف أن أحد التلاميذ هو الذي أسـهب في المحاضـرة وناقشـه بعض التلاميذ فيما ذهب إليه، وأقسـم أن أحدا في مدارسـنا جميعا يمكن أن يفعل نفس الشـيء برغم أن أحد فلاسـفتنا وهو الراحل عبد الرحمن بدوي له كتاب بنفس العنوان! ويكفي أن يقرأه التلميذ أو يطلع عليه!. وقبل أن يستبد العجب بكل من يقرأ هذه السـطور، أقول إن أحد الموظفين العاملين في المدرسـة لا عمل له سـوى أن يبيع الرمل والظلط وأدوات البناء، ثم موظف آخر أو مدرس آخر) لا وظيفة له سوى أن يستخدم سيارته في توصيل هذه المدرسة أو تلك بأجر شـهري. أما أحد الموظفين. وهو من أبناء العزبة للأسـف الشديد، فلا عمل له سوى التجارة في أراضي البناء والظهور بمظهر ناظر المدرسـة، أما الناظر فلا عمل له سـوى أن يأتي صباحاً ثم يعود مساء. وينتهي اليوم الدراسي.

أما المدرســـات فيوظفن التلاميذ في أمور جلب الطماطم والبامية والملوخية. ولا يهم – من قريب أو بعيد- المنهج أو المقرر فالكل سو ينجح حتى ولو لم يعرف أن يكتب اسمه!

نحن نشكو من أن الشعب المصري لا يعرف حقوقه. وأن الأمية قد تفشــت بين المتعلمين. والجهل هو سـيد الموقف. ولم يســأل أحدنا ماذا تفعل المدارس الابتدائية. ولماذا يخرج منها التلميذ ولا يعرف أي شيء. أذكر أن إحدى الجمعيات قد أنشأت مكتبة وطلبنا من المدارس المجاورة الذهاب إلي مكتبتها العامرة مرة في الأسبوع. فكانت إجابة الناظرة: آسفة، لن يأتي أحد، لأن ثقافة الكتاب غير موجودة! وقد تحايل صـــاحب هذه الجمعية بأن يدفع عشـــرين جنيها مقابل ملخص كل كتاب يســتعيره التلميذ. فكان العدد كبيرا. للحصــول على العشــرين جنيها وليس من أجل المعرفة أو من أجل الكتاب!

يمكن لوزير التربية والتعليم الجديد أن يكتشف ذلك بنفسه، لكن أن يترك أمر التلاميذ الجهل، والغش، كما هو الحال الآن فلن يفيد ذلك أحد اللهم إلا خفافيش الظلام! ولو تطوع أحد وسأل التلاميذ عن الثالوث الثقافي المصري: عباس العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم، فأقسم أن أحدا لن يعرفهم، لأن الأساتذة لا يعرفونهم. فكيف نريد أن يعرفهم التلاميذ؟! نحن للأســـف الشديد لا نهتم إلا بالمدرسة والمنشآت والمعامل، لكن بالمناهج والعملية التعليمية. فلا يحدث. على الرغم من أن كل المدارس بها أســتاذ مســئول عن ربط المدرســـة بالعزبة أو القرية التي تعمل فيها (أو البيئة التي توجد بها). والعجيب أن كل شـــيء موجود على الورق. والمســئول يزور المدرســـة – إذا زار- ويوقع على الورق. ثم لا حياة لمن تنادي!

وأقول: لمصلحة من كل هذا الإهمال؟. ومن المسئول عنه؟ وماذا تعمل مديريات التربية والتعليم؟. أنها حسـبما عرفت مشغولة بالمنافسات: من سيكون مديرا لها؟. ومن يعرف أحدا في حزب الحرية والعدالة؟. وكان قبل ذلك يتساءل: من يعرف أحدا في الحزب الوطني؟. ومن يتصل بهذا العضو البرلماني أو ذاك لأنه يريد أن يشغل المنصب؟. أما المدرسون والنظار. فلا شـيء يشغلهم سوى الوثوب على المقاعد. وفي العزبة يتنافس أكثر من شـخص علي منصـب الناظر بعد أن غادر الناظر السابق المكان. والحق يقال: لقد جاء الرجل ثم ذهب بعد سـنتين ولم يشـعر به أحد. أما الناظر الجديد (أو المرشـح للمنصـب) فلم يسـمع به أحد إلا كتاجر في دنيا البناء!، وإذا حدث ذلك فمعناه أن المدرسـة الوحيدة في العزبة قد ضـاعت لأننا لم نسـمع عن المدرسـة والبيئة. ولم نسـمع عن المسـرح والمعمل. برغم أن أحد المحافظين قد زارها يوما وهو اللواء سـمير سـلام.! المدرسـة ومستقبلها بين يدي الوزير، ويجب ألا نتركها بين يدي مدرسـين ومدرسـات لا يعرفون الله، ولا يتقونه في التلاميذ الذين أدمنوا الذهاب إلى المدرسة كل صباح دون أن تكون معهم كراسات أو كتب. لأنه –ببساطة- لا يسألهم أحد عن شـيء، ولا يعرفون كلمة. واجب. التي كنا نخاف من المدرسـين بسـببها يوما! إن مدرسـة عزبة المهندس التابعة لدائرة شـربين التعليمية في حاجة ماسـة إلى أن ينظر إليها المسـئولون في الدقهلية أو في الوزارة نظرة اهتمام، وإلا فلا أمل يرجى من تلاميذ المدرسـة الذين يتحولون – والحالة هذه- إلى كتيبة من الجهلاء. وإذا سـألنا عن مجلس الآباء فلم يحدث أن اجتمع مرة واحدة. أنها مجرد أوراق يتم تسـديد خاناتها لإرسـالها إلى المديرية، ناهيك عن بعض الأسـماء المكرورة التي لا أولاد لها أو لا تهتم من قريب أو بعيد بالعملية التعليمية! إذا كنا نريد أولادنا حقا

وإذا كنا نريد نهضــة حقيقية كما أعلن الرئيس في برنامجه الانتخابي. فلابد من الاهتمام بالتعليم والنشء، ولاننســى أن الإمام محمد عبده كان يســمى تلاميذ المدارس الابتدائية بالغرس. وكان يوصــينا بالاهتمام بهذا الغرس! كما يجب ألا ننســى أن عملاق الأدب العربي عباس العقاد لم يحصــل على شهادة رتوحه سوى على شهادة الابتدائية ولم يكتشف موهبته كأديب إلا عندما كان تلميذا في المدرســة الابتدائية، كما كان يجيد اللغتين الإنجليزية والألمانية عندما كان تلميذا؟. الســؤال اليوم على وزير التربية والتعليم أن ينهض بهذه المدرســة قبل فوات الأوان، والتي لا تقذف إلينا سوى بالجهلة والأميين وغير المتعلمين الذين لا يحتاجهم مجتمعنا على الأقل في مرحلة نبحث فيها عن الفنيين والمتعلمين في كل التخصصات! وقبل أن يســأل الشــامتون – وما أكثرهم – أين وزارة التربية والتعليم؟!

قريتي: عزبة الشهيد. المهندس سابقا:

«لا شــيء يعلو على اسم مصــر لتبقى خالدة أبد الدهر. ولو هلك الهالكون». هذا المبدأ قد آمن به نفر من عزبة المهندس – قريتي وهي من أعمال مركز شــبين بمحافظ الدقهلية منذ حروب مصــر أكتوبر ٧٣ ويونيو ١٩٦٧ وحروب الاســتنزاف وحرب الإرهاب في سيناء قدمت هذه العزبة الصغيرة، التي لا تزيد عدد سكانها على ستة آلاف نسمة سبعة من شبابها ضحوا بحياتهم ذودا عن حياض مصــر وحدودها. لم تبخل هذه القرية بأعز ما تملك من أرواح شــبابها الذين ضــحوا في الجيش المصــري وسجلوا بدمائهم صفحة فخار جديدة لمصــر ولشعبها العظيم. المؤسف أن اللواء عمر الشوادفي محافظ الدقهلية يرى غير ذلك، صحيح أنه ذهب لأحد الشهداء وهو الشهيد عادل الهلالي

لكنه لم يفعل أكثر من ذلك ومطلبنا الوحيد الذي نكرره الآن أن يطلق اسم شهداء العزبة على المدرسة الوحيدة «الإلزامية» هناك. وهو أمر سهل وميسور ووجدناه في القاهرة، حيث أطلق اسم شهداء الشرطة والجيش على المدارس في أحياء الدقي وإمبابة والقاهرة. ونتمني من محافظة الدقهلية أن يطلق اسم «مدرسة الشهداء» بقرية المهندس على أن نضع أسماء الشهداء السبعة بجوار الاسم. وفي هذا تقدير لأرواح الشهداء وتحفيز لأبناء القرية ألا يبخلوا علي مصر بالغالي والنفيس. فهل يستجيب اللواء عمر الشوادفي لهذه الأمنية التي يطلبها ويريدها كل أبناء القرية؟!.

آخر الأحزان: قرية في الدقهلية تقدم خمسة شهداء من أبنائها :

.. باستشهاد عادل أحمد ذكي الهلالي يكون عدد من استشهد في عزبة المهندس بمركز شربين محافظة الدقهلية خمسة شهداء هم: محمد حسانين والشربيني هلال و محمد علي بخيت و إبراهيم لاشين ثم الأخير وليس الآخر عادل الهلالي.

ولفت النظر أن قرية المهندس هي العزبة الوحيدة في مركز شربين التي قدمت هذا العدد الكبير نسبيا من الشهداء.. ورغم ذلك لم تحصل كقرية على حقوقها من المحافظة والوزارة.. والحق يقال لولا جمعية رعاية للأعمال الخيرية المشهرة برقم ١٨١٣ لعام ٢٠١٠ في زمن المحافظ اللوء سمير سلام التي ساعدت في إنشاء حضانة إسلامية تضم ٦٠ طفلا وتحاليل طبية برئاسة د. السيد العراقي ودروس تقوية برئاسة الأستاذ محمد عبد الله وفرن نصف الي مسئول عنه ماليا وإداريا أحد الملتحين بمقتضى توكيل من الجمعية ومسجد جديد ثم مكتبة تابعة للهيئة العامة لقصور الثقافة.

أقول لولا هذه الجمعية لما سمع أحد عن هذه القرية ولولا شهداؤها الذين رفعوا اسمها في عنان السماء..

وقد استقر رأي أصدقاء الشهيد عادل الهلالي وكتبوا لائحة مكتوبا عليها قرية الشهيد. أما في الجنازة التي تحولت إلى مظاهرة وطنية كانت الهتافات تشق عنان السماء وهي: لا إله إلا الله.. الإخوان أعداء الله.

ويبقى أن قرية المهندس في حاجة إلى إطلاق اسم آخر شهدائها على مدرستها الوحيدة لتسمى مدرسة الشهيد عادل الهلالي.. كذلك مسجدها الكبير الآيل للسقوط ناهيك عن رصف الشوارع الجانبية. ونقل محولها الكهربائي حتى يتسنى لأحد أبنائها بناء مضيفة بالجهود الذاتية.. وكل هذه المطالب أمام المحافظ الهمام اللواء عمر الشوادفي.

وأخيرا نظمت المكتبة الجديدة هناك معرضا باسم شهداء قرية المهندس.. وطبعت كتيبا به نبذة عن كل شهيد استشهد لعمل أمسية يحضرها أحد أقارب الشهداء ويحضرها د. حسين خضير عضو مجلس الشعب السابق وكذلك أحمد أبو العز من قرية مظهر أبو العز.. وعدد كبير من رؤساء المجالس البلدية المحيطة.

باختصار.. كانت شهادة عادل الهلالي سببا لكي يتذكر سكان القرية الشهداء الخمسة الذين قدمتهم دفاعا وزودا عن الوطن مصر الذي يستحق أن نبذل في سبيله كل غال ونفيس.

كلمة النهاية:

ما سبق كان بعضاً من حكايات عزبة المهندس (الأرض الطيبة) التي عاشت في ضمير أبنائها وكانت في جانب منها نبراساً هادياً – وفي جانب آخر كانت حكايات ناقدة ورغم أن كتيبة الجهل تعمل على قدم وساق إلا أننى أثق تماماً فى أن كتيبة المعرفة سوف تظهر يوماً. وسوف تعمل بمصطلح البحث العلمى فى كل شارع منها..

وأذكر أني فكرت في أن أسمي حارات العزبة وشوارعها الرئيسية بأسماء جيل الرواد.. كي أوثّق الصلة بين هؤلاء وأولئك. فرفضت كتيبة الجهل لأنها لا تريد هذه الصلة وفكرت أيضاً فى إطلاق اسم الشهداء على المدرسة الوحيدة فى العزبة فرفض النصف مُتعلم الذى باع المدرسة وأرضها إلى أصدقائه.. دون أن يتحرك أحد من أبناء العزبة الميامين.

.. هذه المشاهد الحياتية كانت ملء السمع والبصر يوماً.

وسوف يُقيض الله سبحانه وتعالى بعضاً من المتعلمين الأصلاء ليكشفوا عن معادن الناس.. ويستخدموه المنهج العلمى فى معرفة دلالات هذه المشاهد..

أنى أومن أن كتيبة المعرفة سوف تظهر يوماً ما.

القسم الثالث
أيام في باريس

باريس مدينة الجن والملائكة والمكتبات!:

.. كان شعوري بما يشبه «الضياع» أو «الغرق» في دروب باريس، (وأزقتها وحواريها) هو دافعي الأول لكتابة هذه السطور.. فعندما يجد المرء نفسه في بلاد لا يعرف من لغتها إلا القليل، ويجهل عادات وتقاليد أهلها، ويسير في شوارعها فارغ الجيب والقلب، مُضطرب النفس خائفاً..يتجه من فوره باحثاً عن ملاذ، يقيه شرور الغربة، والعوز..

هكذا كان حالي، وربما (أكثر دراماتيكية) في أوائل الثمانينات عندما وليت وجهي شطر بلاد الفرنجة لا أحمل في حقيبتي من (زاد وزواد) سوى بعض «القراقيش» الصغيرة، (وكام) قطعة جبن مع (دستة) من بيض البط الكبير.. حملتها جميعاً تحت إلحاح ودموع أمي!.

ودون ادعاء لبطولات (أو خوارق) مُزيفة لم يكن في جيبي سوى مائة جنيه مصري – أو ما يُعادل وقتذاك خمسمائة وخمسين فرنكاً فرنسياً – وقاموس عربي/فرنسي، إلى جانب شهادتي الجامعية مع قائمة بالمواد التي درستها في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية طوال مدة الدراسة.

لكن إصراري على خوض تجربة الغربة، والدراسة في جامعة السوربون (حلمي وحلم أبناء جيلي بتأثير الدكتور طه حسين طبعاً) كان يجعلني أنسي (أو أتناسى) ما قد أصادف من خطوب وأهوالّ.

.. فكان أن بدأت مشواري بالغوص في الأفكار الفلسفية الكبرى التي انكببت عليها في مؤلفات أستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوي، التي كانت تملأ المكتبات العربية في باريس في ذلك الوقت..

وأذكر أني – بتأثير قراءاتي للفيلسوف الألماني الأشهر نيتشه وما تحدث به إليه «الحكيم ذرادشت» شعرت بأني أولد من جديد.. وعرجت بعد ذلك بالضرورة على شوبنهور الذي قرأت كل ما كُتب عنه في اللغة العربية (بمكتبة مركز جورج بومبيدو في حي ليهال الشهير).. وانتقلت إلى عمانويل كانت،/ واسبينوزا، وأوجست كونت، وبرجسون، وباسكال، وجون بول سارتر..

وكانت محطتي الثانية هي مؤلفات أستاذنا الدكتور زكريا ابراهيم وخصوصا سلسلة المشكلات.. (مشكلة الفلسفة، مشكلة الإنسان، مشكلة الفن، مشكلة الحياة...الخ).

.. ووسط هذا الزخم الثقافي والفكري الذي أحطت نفسي به، شعرتُ لأول وهلة بأني في حاجة إلى أستاذ (بوصلة) يُوجهني الوجهة الصحيحة.

.. وحققت هذه الحاجة عندي، قراءاتي «لمحاورات أفلاطون» التي نصحني أستاذي في جامعة السوربون بقراءتها باللغة الفرنسية، لأنها كشفت لي – من بين ما كشفت – عن خلة الوفاء التي لولاها، لما حدثنا أفلاطون عن فكر أستاذه سقراط.. ذلك الأستاذ الذي كان يُبعثر فكره في الأرجاء غير عابئ بتدوينها.. مُكتفيا بتعليم الناس الفضائل في الأسواق، وعلى قارعة الطريق.

.. ومازلت أعتقد أن اعتزاز أفلاطون (التلميذ) بسقراط (الأستاذ) وإخلاصه الشديد له ولفكره، هو الذي جعله يتذكر كل ما سمعه منه، وليكتبه لنا –بعد ذلك- في محاوراته التي يتحدث عنها دارسو الفلسفة بقولهم: «يقول أفلاطون على لسان سقراط».

ما يعنيني في هذه الحكاية هو العلاقة الصـــادقة، والحميمة التي كانت تربط التلميذ بالأسـتاذ.. فوددت من كل قلبي أن أجد مثل هذا الأستاذ الذي لا يبخل عليّ – بحُكم أستاذيته – بالنصح والإرشـــاد، ويكون في ذات الوقت الملاذ الذي أهرع إليه في ليل الغربة الطويل.

وها أنذا اليوم أتذكر بأســـى بالغ أنني ظللت أبحث عن هذا (الملاذ) أسـابيع وشـهورا.. وصـادفني أسـاتذة كثيرون (أو بالأحرى من ظننت أنهم أسـاتذة)، فكانت فجيعتي فيهم كبيرة، لأنهم كانوا يفتقرون لكل صفات (الأستاذ).

.. وعفوا إذا قلت إن حالي في هذه اللحظة، كان أشبه بحال (الخليل إبراهيم) عليه السـلام، الذي أمضـى وقتاً طويلاً قلقاً حائراً، يُقلب وجهه في السـماء باحثاً عن الحقيقة التي إذا ما ظهرت لا تغيب.. فكان أن تبدلت فرحته (بالقمر، وبالشـمس وبأشـياء أخرى كثيرة ظهرت ثم اختفت) إلى حُزن كبير أفسـد عليه حياته..

***

.. وأذكر أني صـادفت أسـتاذا من (سـوريا الحبيبة) ظننته الملاذ الذي سوف يحميني من نفسي ومن مفاجآت الغربة.. ولم أنس بعد أني بكيت كطفل عندما اكتشـفت أني كنت واهماً، وأن الرجل لم يكن حالهُ بأسـعد من حالي، فظروفه الحياتية قاسـية وديون بيته وأولاده جعلته ينبطح أرضاً في معظم الأوقات..!

ولم يكن الأسـتاذ (المصـري)، والآخر (المغربي)، والثالث (اللبناني) الذين التقيت بهم بعد ذلك، سـوى صـورة مكرورة لهذا السوري المقهور!.

.. وكانت النتيجة أني طويت أحزاني في صدري، وواصلت حياتي لا ألوي على شـــيء!. .. بعد أيام هتفت لي زميلتي، وصـــبت في أذني كلمات كانت ترقص طرباً.. الكلمات تقول: إن أسـتاذك (أو معبودك) عبد الرحمن بدوي ما يزال حياً، ولقد شـاهدته (بشحمه ولحمه) وهو يُحاضـر في ندوة بمبنى منظمة اليونسكو حول الفيلسوف اليهودي ابن ميمون الذي كان الطبيب الخاص لصلاح الدين الأيوبي..

.. وأصـــل الحكاية أن هذه الزميلة – أكرمها الله – كانت تعرف ولعي الشديد بكتابات الدكتور عبد الرحمن بدوي.. الذي كنت ظننته –لا أعرف لماذا- قد مات وشـــبع موتاً منذ زمن، ولذلك أدهشتها أني كنت أضع على مكتبي صورة له وجدتها – بطريق المصادفة ذات يوم – في مجلة (رسالة اليونسكو) التي كان يرأس تحريرها الصديق الأستاذ بهجت النادي..

.. كدت لا أصـدق ما قالته الزميلة لي عبر الهاتف – وكنت وقتها أعمل صـــحفياً في مجلة «الحياة العربية» – فكان أن خطفـت معطفي خطفـاً، وهرولـت هـابطـاً الـدرج قفزاً. وفي المترو، أفقت من شرودي وأنا أقول لنفسي:

- هنيئا لك (يابو سـعيد)، فأسـتاذك (معبودك) عبد الرحمن بدوي ليس ميتاً كما كنت تظن.. وها أنت سـتلقاه بعد دقائق معدودات.. ثم تحسـسـت بلسـاني، شـفتي السـفلي وابتسـمت راضـياً، عندما خطرت ببالي فكرة أن يكون الفيلسـوف الكبير عبد الرحمن بدوي هو هذا الأسـتاذ (الملاذ) الذي أبحث عنه منذ زمن.. وهل هناك من كان يفوقه علماً، وفكراً، وأدباً.. أنه بلاشـك الصـورة المثلى للأسـتاذ والمعلم، وقائد الفكر.. ولم لا أليس هو الذي فتح لي –ولأبناء جيلي – نوافذ الفكر الفلســفي العميق والجـاد عبر مؤلفـاتـه وإبـداعـاتـه في الفكر الأوربي، وتحقيقاته الدقيقة والرصينة في الفكر الإسلامي؟!.

بعد أن هبطت من المترو أطلقت ســـاقي إلى الريح حتى وصـلت إلى مكان الندوة في إحدى قاعات اليونسـكو الكبرى.. وهناك سألت عن الدكتور عبد الرحمن بدوي في لهفة، فأجابني أحد الحاضرين في غير اكتراث قائلاً: لعله ذهب ليتناول وجبة الغداء، ثم نظر في ســـاعة يده، وهو يتثاءب في تثاقل، وقال: اجلس هنا ريثما يعود. مشيراً بيده إلى أحد المقاعد القريبة...

لكن هيهات لمشـــتـاق مثلي أن يجلس!!. فقد ظلت أذرع المكان ذهاباً وإياباً في قلق، وعيني شـــاخصـــة، باتجاه الباب الزجاجي الكبير الذي يبعد عني عدة أمتار.. فها إنذار بعد قليل ســـوف أمتّع ناظريّ برؤية (معبودي الفكري) عبد الرحمن بدوي وهو يدلف منه!.

.. وعندما أطل – الرجل في مهابة – من بعيد، لم أتمالك نفســـي، فهرعت إليه، ماداً ذراعي نحوه، وفي كلمات مُتلعثمة، خجولة، مشتاقة، قلت له:

أستاذي، أهلاً.. أهلاً.

وأظن أن عيني كانتا تبرقان من شـــدة اللهفة، وفمي مفتوح من فرط الدهشـــة.. ولســاني يلهج بكلمات لا أتذكر منها شـيئاً؛ لكن ما أتذكره هو أني كنت سعيداً، مُنتشياً من رؤية هذا (العقل العربي الكبير)...

.. فكانت المفاجأة المفجعة؛ أن الدكتور عبد الرحمن بدوي رمقني بنظرة عدوانية، شــرســة وأشـــاح بوجهه عني، بعد أن لكمني بيده، ليبعد ذراعيّ الممدودتين نحوه في لهفة.. ثم شـــق لنفسه طريقاً آخر بعيداً عني؛ ليدخل إلى القاعة!.

.. كنت حتى هذه اللحظة مسحورًا بالرجل، فظننته لم يسمع ترحيبي به، فكررته ثانية، وأضفت: «أستاذي.. أنت معلمي، وصاحب الفضل عليّ، لقد قرأت كل مؤلفات.. وأنت الآن معبودي.. أريد أن أتحدث إليك..».

كنت أقول ذلك، وهو يُهرول أمامي، ولا يريد أن يسمع أو يتوقف..

وعندما وجدتني وسط القاعة، شعرت بالخجل من نفسي، والتمست للدكتور عبد الرحمن بدوي العذر لأنه ربما لا يريد أن يضيّع وقتاً، حتى ولو دقيقة واحدة، سيّما وأن المُحاضرين في الندوة كانوا تأهبوا بالفعل للحديث عن ابن ميمون.

.. اضطررت أن أبقي حتى فرغ المحاضرون من الكلام، وانتهزت فرصة خروج الدكتور عبد الرحمن بدوي إلى خارج القاعة؛ فهرولت وراءه مسرعاً.. لكنه قلب وجهه مُكفهراً عندما وجدتني ألاحقه، وصرخ فيّ قائلاً:

من أنت، وماذا تريد؟

قلت إنني (فلان)، دارس دكتوراه بجامعة السوربون (في قسم الفلسفة)، ولقد قرأت مؤلفاتك جميعا، بل أقوم حالياً بتكليف من أستاذي الفرنسي بترجمة بعض نصوص من كتابك «أفلاطين عند العرب»..

.. هنا توقف د. عبد الرحمن بدوي، وبدا وكأنه لم يسمع مني ما قلت، ثم رشقني بسؤال كالسهم، وقال: بتشتغل إيه؟.

قلت له في تلعثم وشوق: أعمل صحفياً.

قال: في أي صحيفة؟

قلت: في مجلة «الحياة العربيّة»!

قال وقد زادت علامات الاستياء على وجهه:

- من يُموّل هذه المجلة المزعومة؟.

وجدتني فجأة أمام سؤال مُحيّر لم أطرحه على نفسي من ذي قبل:

فقلت له وهو يتعجلني الإجابة:

لا أعرف. لكنني فرح بلقائك أيها الأستاذ الكبير. وقبل أن أستطرد في كلامي المعسول، رشقني الرجل مرة أخرى بسهماً من سهامه الطائشة، وقال:

- اغرب عن وجهي. لا تضيّع وقتي..

ثم اختفى في دهاليز اليونسكو، وتركني في شبه غيبوبة (أو صدمة) لم أفق منها إلا بعد لحظات مرت كالساعات..

.. ووجدتني، وأنا أركب المترو عائداً إلى مكتبي في مجلة الحياة العربية، أمسح دمعتي على خدي، وأغمغم في إحباط قائلاً لنفسي:

- لقد ضاع أملك (يا بو سعيد) مرة أخرى، فلا أستاذ، (ولا ملاذ) بعد اليوم!!.

***

.. بعد أسابيع قليلة كنت أطالع في المكتبة الوطنية فصادفت مجموعة من الوثائق الخاصة بالفترة التي أمضاها الإمام محمد عبده في باريس.

.. وعندما التقطت عيناي العنوان الذي كان مقرا لمجلة العروة الوثقى (٦ شارع مارتيل) هرعت في اليوم التالي إلى هناك لأشم عبق الماضي الجميل في أرجائه وأتذكر نضالات محمد عبده، والأفغاني، وزملائهما وتمنيت من كل قلبي أن تُولي وزارات الثقافة العربية هذا المكان اهتماماً خاصاً كأن تحوّله إلى ناد أو ما يُشبه المتحف الصغير الذي يضم مآثر الرجلين إلي جانب الأعداد الثماني عشرة التي صدرت من العروة الوثقى.

وأشهد أن «زيارتي» لمقر العروة الوثقي قد فتحت شهيتي لرصد خطوات كل أبناء الكنانة الذين أقاموا في باريس.. وأدهشني بعد قليل من البحث أن كل قادة (الفكر والأدب والسياسة) في هذه الفترة، وما تلاها من فترات، كانت رحلتهم لباريس أشبه «بالمحطة الضرورية» في حياتهم...

.. ورويداً، ورويداً، وجدتني أعرف الكثير عن حيوات (هؤلاء الرجال، وغزواتهم العلمية)، وظللت أجمع كل ما يقع تحت يدي من (أخبارهم وأحوالهم) في قصاصات، ظلت تتراكم حتى ملأت صندوقاً ضخماً، عكفت في فترة لاحقة على تبويبه، وتدوينه ليكون هذا الكتاب...

وأعترف أني بهذا المسلك قد برئت تماماً من الحيرة التي كانت تملكتني وملأتني بالفزع لفترات طوال.. ولم لا.. فلقد وجدت في هؤلاء الرجال، «الأستاذ – الملاذ» الذي أعياني البحث عنه، وكاد يفقدني حماستي لكل شيء.. كما استمتعت بمعايشتهم جميعا في سنوات غربتهم، وباستحضارهم من جوف التاريخ كي أحيا معهم، فكانوا – أو هكذا خُيّل إليّ – يشاركونني أوقاتي، ويجيبون على أسئلتي ويصطحبوني معهم في جلساتهم ولقاءاتهم داخل جامعة السوربون، أو على المقاهي التي تملأ الشوارع والميادين الباريسية.

وغدت هذه الأحياء (وتلك الأماكن) ترتبط في ذهني بأسمائهم.. «فحي مونبرناس» هو حي توفيق الحكيم، و«مقهي الدوم» هو مقهي ذكي مبارك، و «حديقة لوكسمبورج» هي حديقة الفنان مختار يشاركه في عشقها الشيخ مصطفى عبد الرازق.. و «مدينة ليون» هي مدينة القانوني البارع عبد الرازق السنهوري، و «مونبلييه» هي مدينة طه حسين، و «حدائق بولونيا» هي حدائق أمير الشعراء أحمد شوقي، و«شاطئ نهر السين» هو المكان الأثير لبيرم التونسي، و «الريف الفرنسي» هو القريب إلى قلب سلامة موسى..

وأذكر أني – في كل مرة كنت أمر بهذه الأماكن – كنت أشعر بوجودهم فيها.. ففي «شارع المدارس» الملاصق للسوربون والكوليدج دي فرانس والذي حدثنا عنه طويلاً الدكتور طه حسين في (أيامه)، كنت أجدني أسير (الهويني)، أتحسس أحجار الشارع بقدمي في رفق.. تحت تأثير شعور طاغ هو (أنني إنما أسير على جسد طه حسين نفسه!).

وأعترف صـــادقاً، أنني بهؤلاء الكبار الذين حولوا غربتي على أُنس وبهجة قد وجدت «ضـــالتي» و «ضـــالة» كل باحث عن القيمة، والأصالة، والمعاصرة.

كما ترســخ إيماني بأن مصـــر، وإن كانت قد أنجبت أناســا بهذه (القامة الطويلة، والعقول المســتنيرة)، في أزمانها البعيدة، فهي لاشـــك قادرة على إنجاب أجيال أخرى تحمل المشـــعل، وتواصل المسيرة.

باريس تتكلم العربية!:

كنت فى المرحلة الإعدادية عندما سـمعت لأول مرة عن جامعة السوربون. والسبب طه حسين عميد الأدب العربى الذى كان مقرراً علينا الجزء الأول من كتابه الأيام.. وأشـهد أننى منذ هذا التاريخ ازداد اهتمامي بهذه الجامعة التى علمت ضـمن ما علمت لاحقاً أنها من أعرق جامعات العالم.. وعلمت أيضـاً أن لغة فولتير التى تنطق بها هذه الجامعة والدارسـون فيها أيضـاً من أحب لغات الأرض للدكتور طه حسـين الذى كان يتغنى بها كما يتغنى باللغة العربية التى كان الكثيرون يطربون عندما يستمعون إليه وهو يتكلم اللغتين.

وأشـهد أن اللغة الفرنسـية كانت سـيئة السـمعة فيذهب إليها الطالب رغم أنفه لأنه حصـل على مجموع صـغير فى الشـهادة الابتدائية.. أما اللغة الإنجليزية فكانت تفسح المجال للمتفوقين.. وكذلك عندما سـمعت عن جامعة السـوربون ولغتها الفرنسـية.. وعرفت أن كبار المتعلمين فى مصـر والأسـر البرجوازية ومعظم قادة الرأى والفكر والوطنية كانوا يتعلمونها.. بل إن مصـطفى كامل – زعيم الأمة – كان من دارسـى الحقوق باللغة الفرنسية فى مدرسة الحقوق الخديوية!

أقول كل ذلك أصـابنى بالدهشـة لأن هذه اللغة أجدر بها أن تكون – إذا كان الحال كذلك – اللغة الأولى وليسـت اللغة الثانية.

أقول ذلك لأننى عندما تأملت جواز السفر المصرى ورأيت أن كل كلماته باللغة الفرنسية وأنه يعمل وفق اتفاقية مصرية – فرنسية أدركت أن اللغة الفرنسية ليست «دون» كما نفهم ذلك فى مصر.

وعندما قدر لى أن أعيش فى فرنسا وأن أتكلم اللغة الفرنسية كأهلها.. وحصلت على درجة الدكتوراه باللغة الفرنسية ومن جامعة السوربون الأولى... وأنجبت أولادى في باريس وكنت أتحدث معهم في المنزل لغة فولتير.. بل وأصررت أن يذهبا إلى مدارس الليسيه الفرنسية في القاهرة.. وأن يذهب ابني الأكبر – في البداية - إلي الجامعة الفرنسية فى مصر.. كان ذلك اعترافاً ضمنياً بأولوية هذه اللغة على غيرها من اللغات!

أياً كان الأمر – ذهبت إلى جامعة السوربون بعد أن أتقنت اللغة الفرنسية فى أحد المعاهد الدولية – وهو معهد الأليانس فرانسيز القريب من حي مونبارناس ولم أجد مشقة فى التسجيل، والتقيت بأستاذى الذى كان مشرفاً على رسالتي لاحقاً ويدعى بيير تييه.. ولا أنكر أنى كنت سعيداً بالجامعة وبمكتبتها وبقاعاتها الكبيرة.. وكنت فى البداية أحضر أية محاضرة على طريقة طه حسين.. المهم أن أفهم ما يقال.. وكنت قرأت فى الجزء الثالث من كتاب الأيام عن شارع المدارس، والكوليدج دى فرانس وتمثال مونتاني.. وأعترف صادقاً أنني كنت إذا سرت فى هذا الشارع أمشى الهوينى فى غير سرعة وبتأن شديد لأننى كنت أظن أننى أمشى على جسد طه حسين نفسه!

كانت أولى القضايا أن نعرف «أصل وفصل» هذه الجامعة التى طبقت شهرتها الآفاق. وكان عميد الأدب العربى (طه حسين) أكثر من روج لها فى الشرق العربى من خلال الجزء الثالث فى كتابه «الأيام» الذى رصد – بدقة – علاقته بالجامعة فكراً ومنهجاً وطلاباً إلى حد أن كل من يقرأ هذا الجزء تحديداً يشتهى أن يدرس فى هذه الجامعة..

ناهيك عن أن جانباً مهماً من فكره ورؤاه اســتقاه (حلالاً زلالاً) من قاعات ومكتبات الســوربون بل إن الحرائق الفكرية التي أشعلها في عصره سواء الخاصة بالاستشراق، أو باللغة اللاتينية وكتابة السيّر وقراءة التاريخ قد استلهمها من رجالات هذه الجامعة وتلاميذها. وأذكر أننا كنا نجلس وكأن على رؤوسنا الطير أمام حديث ممتع اســتمعنا إليه من أحد رفاق «الشلة» عن القس روبرت دى سوربون مؤسس الجامعة الذى لم يكن يعرف – بالقطع – أن ملجأ الفقراء الذى كان يبنيه فى شتاء عام ١٢٥٧م سيكون حجر الأساس لقبلة طلاب المعارف وأشــهر جامعات العالم قاطبة، وأغلب الظن أن الرجل لم يكن يطمح لشيء من هذا.. فحسبه أنه كان من ذوى القلوب الرحيمة فلم يتردد فى أن يستغل صلته القريبة بــ (الملك لويس) ليأخذ موافقته على إنشاء بيت متواضع لاستقبال ١٦ طالباً فقيراً؛ كى يتمكنوا من دراسة علم اللاهوت والتأمل فى نصوصه فى مأمن من صقيع البرد وأهواء الطبيعة.

واليوم عندما تقف مبانى السوربون شامخة وكأنها تطاول الزمان والمكان معاً لتستشرف عنان السماء بأمجادها العلمية التي ما فتئت تؤتى أكلها على مدى ٨٠٠ عام لابد أن تقفز إلى الأذهان صــورة هذا الرجل الودود الذى حزّ فى نفســه أن يجد أهل الورع من طلاب اللاهوت يلبســون ثياباً رثّة، بعضــها ممزق لا يقى برد الشتاء يبحثون فى الليل عن مكان يأوون إليه فلا يجدون!

تقول الرواية التاريخية إنه بكى عندما وجد الحجرات الصغيرة التى يسكنها الطلاب بجوار إسطبلات الخيول وتحت أدراج البيوت الفخمة وخصوصاً عندما كان يسمعهم فى النهار يتسولون وهم يرددون أغنية حزينة يقول مطلعها:

أعطونا خبزاً..

لكى نعيش وندرس اللاهوت!

لقد كانت هذه الصورة البائسة التى مازالت تحتفظ لنا بها سجلات الجامعة حتى اليوم كفيلة بأن تجعل القس روبرت دى سوربون يكرس بقية حياته لوضع المبادئ الأساسية التى تحكم حياة الطلاب سواء فى حجرات الدرس والتأمل أو فى أماكن السكنى.

ثم ازداد شغفى بالجامعة وبالعرب الذين درسوا فيها.. مثلاً ازداد إعجابى بالدكتور المفكر عثمان أمين الذى كان أول من درس الإمام محمد عبده الذى رحل عن دنيانا عام ١٩٠٥.. وأعد عنه أطروحة دكتوراه.. ثم الدكتور محمد موسى.. والدكتور/ محمد مندور والدكتور زكى مبارك والدكتور محمد أحمد خلف الله بالإضافة للدكتور أحمد ضيف الذى كتب عنه طه حسين وكان يزامله فى الجامعة ثم الدكتور صبرى السوربونى الذى درس فى جامعة السوربون وتزوج من فرنسية أيضاً.. والدكتور لويس عوض الذى تزوج من فرنسا وإن لم يدرس فيها دراسات منتظمة.

أقول الحق لقد تبين لى أن كل الرعيل الأول درس فى فرنسا بل إن ٣٢٠ طالباً مصرياً كانوا يدرسون على أيدى الأستاذ لامبير فى كلية الحقوق بجامعة ليون من إجمالى ٤٠٠ طالب كانوا يدرسون فيها!!

والحق أن الثقافة الفرنسية فى جزء كبير منها قد شاعت بشيوع لغة فولتير منذ الطهطاوى الذى ذهب فى زمن محمد على إلى باريس ليؤم المبعوثين فى الصلاة.. إلا أنه تفرغ للبحث والترجمة واهتم بروح القوانين ومؤلفه مونتسكيو.. وكتب فى تخليص الإبريز فى تلخيص باريز.. يومياته.. ثم عاد وأنشأ كلية الألسن فى جامعة عين شمس الحالية.

وأن كنت أنسى، فلن أنسى الدكتور محمد حسين هيكل الذى كتب قصة زينب من واقع الحنين الذى كان يشعر به تجاه مصر وفلاحيها ويروى أنه كان يعود من الجامعة ليغلق النوافذ ويستحضر قريته كفر غنام بالدقهلية ليكتب أحداث روايته ثم يبعث بها إلى مصر لتنتشر بإمضاء فلاح مصرى فى صحفها السيّارة.. وكان معروفاً عن الدكتور هيكل أنه كان يدرس القانون وأعد أطروحة عن الدين المصرى لكن الأدب كان سلوته الوحيدة، فى اجترار الذكريات..

وأشهد أننى عندما كنت أذهب إلى جامعة السوربون أتذكر الكلمة الشهيرة التى قالها الدكتور زكى مبارك وهى أن أحجار جامعة السوربون سوف تبلى ويبقى كتاب النثر الفنى فى القرن الـ ١٤ الهجرى، أما أستاذهم الإمام محمد عبده الذى ذهب إلى هناك وأصدر مع أستاذه الأفغانى ١٨ عدداً فقط من جريدتهما العروة الوثقى.. وفى أعدادها أعترف بأن الرحابة العلمية وحرية الفكر التى وجد فرنسا عليها هى التى دفعته مع أستاذه إلى إصدار هذه الجريدة.

أما تلميذه عبد الرحمن بدوى فقد ترك مصـــر فى أوائل الخمسينيات ثم استوطن فندق لوتيسيا بالحى اللاتينى وكتب ما يقرب من ثلاثمائة كتاب وتحقيقاً تراثياً فى باريس.. ولم يتزوج وكان مخلصـــاً للعلم والعلماء.. وأذكر أنى أول مرة التقيته فيها كان فى اليونســـكو أثناء مشـــاركته فى ندوة حول كتاب دلالة الحائرين لمؤلفه ابن ميمون وهو الطبيب الخاص للقائد صـلاح الدين الأيوبى.

أقول كلما ظننت أنى رصـدت – وهو كثير - تاريخ كل من درس في جامعة الســوربون اكتشــفت أن هناك العشــرات بل المئات الذين حملوا جامعة الســوربون على أكتافهم ومنهم الدكتور محمد أركون الذى أســس قســم الدراسـات الإسـلامية الذي خلفه فيه الباحث والكاتب بول بالطا وهو – لمن لا يعرف – ابن خالة المفكر الراحل أنور عبد الملك.

... وإذا قمنا بتوســيع الدائرة وجدنا مئات من المفكرين العرب قد درســوا فى جامعة الســوربون من لبنان التى تتحدث بعض الأسر فيها اللغة الفرنسية ويرتبط قادتها سياسياً بفرنسا إلى جانب المغرب العربى (تونس والجزائر والمغرب) التى ترتبط بفرنســـا وتتحدث لغتها حتى فى المقاهى والحانات والدكاكين الصغيرة.

أقول إن الســـوربون ذهبت إلى دولة الإمارات العربية وأنشأت فيها فرعاً تابعاً لجامعتها فى باريس.

باختصـــار كانت جامعة الســوربون قبلة للأســاتذة والطلاب العرب الذين يأتونها من كل فج عميق..

ويُروى أن الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية الشهير درس بها وكان يذهب كل صيف إلى هناك ويجلس فى مكتبتها إلى آخر العمر.. وكذلك كان يفعل الدكتور عبد الرحمن بدوى.. وتبقى الجامعة ليرتبط بها الجامعيون العرب.. حتى لتظن أن أقسام اللغة العربية بها والدراسات الإسلامية التى درس فيها غالى شكرى والشاعر أحمد عبد المعطى حجازى كثيرة إلى حد أنها باتت تتكلم اللغة العربية صباحاً ومساءاً ومنها أننى ذهبت إلى جامعة السوربون فكانت أول محاضرة عن «كتاب النفس» لابن سيناء.. أما أركون فى السوربون الجديدة فكان يُدرّس ابن سبعين وهو فيلسوف إسلامى يعيش فى أسبانيا وتحديداً فى جنوب أوروبا.

باختصار لقد لعبت السوربون دوراً تنويرياً عبر أساتذتها العرب وطلابها الذين كانوا يرون أنها قبلتهم قديماً وحديثاً..

***

ذهبت لأول مرة إلى جامعة السوربون برفقة صديق عراقى كان يدرس فى قسم الفلسفة .. وفوجئت بأن الأستاذ المشرف يلتقى بحوالى عشرة طلاب من أصول عربية ويدرس معهم «كتاب النفس» لابن سيناء.. وكتاب تراثى محقق هو «أفلاطين عند العرب»من إنتاج د. عبد الرحمن بدوى.

وكنت متأثراً بالثورة الإيرانية كعادة شباب هذه المرحلة .. كان ذلك فى أوائل ثمانينيات القرن الماضي .. وأذكر أن الأستاذ الفرنسي تقدم منى فى أدب جم وسألنى ما إذا كنت أتيت للدراسة معه فقلت له على طريقة المصريين عندما يجدون أنفسهم فى مأزق حياتى.. نعم!

وعندما بدأنا نتناقش قلت:

أريد أن أدرس فلسفة الدين..!

فصمت الرجل وطلب أن أكتب بعد أن قام بالتسجيل لى في قسم الفلسفة السياسية واقترح عليّ أن أدرس العلاقات السياسية الدولية فى زمن الإمام محمد عبده وقال لي بالحرف الواحد. لابد من استغلال دراستك السياسية فى هذا المجال!

.. وأذكر أنى عدت إلى مصـــر وذهبت إلى كليتي «كلية الاقتصــاد والعلوم الســياســية» والتقيت ببعض الأســاتذة الذين نصــحوني بقراءة رســالة دكتوراه بها فصــل عن الإمام محمد عبده وآرائه السياسة لكنني للأسف لم أجد ما يرضيني. وتبين لي صـــعوبة عمل هذه الدراســـة. وعندما عدت إلى باريس أظهرت الأستاذ على صعوبة البحث عن مصادر في موضوع محمد عبده.. وكان المحك الحقيقي هو أن أكتب فى الموضــوع الذى تحدثت مع الأستاذ فيه وهو فلسفة الدين..

لكن بعد عدة أشــهر تبين للأســتاذ أن الموضــوع أكبر مما تصـــورت وفوجئت بالأســتاذ يطلب تغييره.. وأحالني إلى مســـاعده الأب اللبناني (يواكيم مبارك). وأذكر أن الرجل من قبيل التبســيط لاحظ أن معظم مراجعى التي اســتعنت بها هى مؤلفات لعباس محمود العقاد.. فقال لي: خذ فلســفة الدين عند العقاد.. ما رأيك؟ لأن موضوع فلسفة الدين واسع ويحتاج إلى عشرين شخصاً يعملون دكتورهات فيه...

وبعد عناد منى رضخت.. وأذكر أن الأستاذ يواكيم مبارك قال لي: خذ دكتوراه يا ابنى.. ثم تفلسف كما يحلو لك بعد ذلك.. ثم لا تنسى أن الفكر الفرنسي لا يعرف عباس العقاد لأن ثقافته أنجلوسكونية وعلى العكس يعرف جيداً زميله طه حسين.. وعندما نقرأ لطه حسين نقول لأنفسنا: هذه بضاعتنا رُدت إلينا!

وأضاف: في كل مرة نجد اسم طه حسين مقترناً بعباس العقاد لكننا نعرف جيداً الأول.. ولا نعرف الثانى.. حتى أن الأنسكلوبيديا الفرنسية تقوم بتعريف العقاد بأنه: روائى مصرى له قصة سارة.. وهذا غير صحيح.. فالعقاد كاتب ومفكر إسلامى ومصلح أدبى وشاعر.. إذن الفكر الفرنسي لا يعرف حقيقة هذا الرجل.!

ومن ثم فعمل أطروحة للدكتوراه حوله.. سوف يكون إضافة حقيقية للفكر وتوضيح أمين لفكر الرجل..

.. وفى جامعة نانتير أى باريس العاشرة تقدمت بأوراقى لمعرفة أنه لم يسجل فى أوروبا شخص عن فكر العقاد.. واكتشفت بعد أسبوع أنه لم يسجل أحد سوى شخص فى أسبانيا عن العقاد اللهم بعضهم تحدث عن النبوة عند العقاد فى فصل من فصول رسالته المهم.. بدأت على بركة الله رسالتى.. وعشت مع العقاد حوالى خمس سنوات.. وما أجملها سنوات بحث ودراسة فى عاصمة النور (باريس).. وفى يوم المناقشة أذكر أنه كان يوم سبت.. حضر الملحق الثقافى المصرى فى باريس (د. على عبد العال رئيس مجلس النواب).. وكان ضمن لجنة المناقشة الراحل الأستاذ أرنالديز المستشرق الفرنسى المعروف باهتمامه بابن تيمية والدكتور المصرى النوبى الأصل أحمد جمال عثمان ثم أستاذى المشرف ببير تييه نفسه..

وأقام لي صديقى المستشار الثقافى أحمد البرعى (وزير القوى العاملة ووزير الشئون الاجتماعية) حفل تكريم فى مقر المركز الثقافى فى سان ميشيل.. وكان يوماً مشهوداً شعرت أنى ولدت فيه (كباحث) من جديد..

والحق أنني في كل مرة عندما أزور جامعة السوربون ومكتبتها العريقة أتذكر أنها صاحبة الفضل عليّ فى تحويل مجرى حياتى من مجرد كاتب إلى باحث أكاديمى.

مشاهد مصرية فى العاصمة الفرنسية:

الوجه الآخر. لهؤلاء: (روجيه جارودي ، أنيس منصـور، أحمد عبد المعطي حجازي ، فاروق حسني ، محمد سلماوي ، جمال الغيطاني ، فؤاد زكريا ، رينيه خوّام ، مكتب الأهرام ، عبد الرحمن ، بدوي ، زكي نجيب محمود)

عندما سـئل عباس العقاد عن نفســه أجاب يقول: أنه ثلاثة أشخاص في شخص واحد فهو عباس العقاد كما خلقه الله وهو في الوقت نفســـه عباس العقاد كما يراه الناس.. وهو عباس العقاد ثالثا كما يرى عباس العقاد نفسه!

ولذلك فإن الجانب الآخر أو الوجه الآخر للإنسان هو شيء موجود مُعترف إلا فى ثقافتنا أو بالأحري في مفهوم الكثيرين الذين يكتفون بجانب واحد من الشخصية مع أن هناك جوانب أخرى لذات الشخص...

ومما يؤسـف له أننا عندما نتصـدى لترجمة حياة إنسـان والكتابة عنه نصـور للناس مُنذ الصـغر وكأنه خُلق ليكون عبقرياً.. فالعقاد نفســه يذكر أنه كان يجيد ثلاث لغات هي الإنجليزية والفرنسـية والأسـبانية منذ كان في السـادسـة من عمره..!

وطه حسين أصبح أعمى ليكون – بعد ذلك – عميدًا للأدب العربي.. وكذلك الحال مع توفيق الحكيم الذي ذهب إلى باريس وتجول في أزقتها وعرف فتياتها.. لكي يعود ويكتب.. وكأن الثلاثة وُلدوا لكى يكونوا عباقرة - كل في مجاله!!

وهذا خطل في الرأي لأننا ننكر جدوى الجهد الإنسـاني.. فالحق أنه لولا جهد عباس العقاد ولولا حفظ وفهم طه حسـين ولولا مثابرة واجتهاد توفيق الحكيم لما أصـبح الثلاثة رواداً وقادة تنوير.. على الأقل كما عرفناهم الثلاثة..

باختصار إنني أرفض فكرة القولبة.. فذاك عبقري.. والثاني كذلك أما الثالث فقد خلقه الله ليكون عميداً للمسرح العربى ..

..ولاشك أنني أؤمن بالإنسان خيره وشره لكنني أؤمن أيضاً وأساساً بالجهد الإنساني القادر على أن يجعل من (الفسيخ شربات)!!

فلكل إنسان أكثر من وجه، ولقد أتيح لي أن أعرف بعض الأدباء والكتاب من الجانب الآخر.. وهو جانب لا يراه إلا القليلون وتبين لي أنهم بشر ومن ثم يخطئون ويصيبون.. ليس لأن الكمال لله وحده. ولكن أيضًا لكي نعرف الواحد منهم حق معرفته.. فالعقاد أو طه حسين هو إنسان عادي وليس نبياً، ومن ثم قد يخطئ الواحد منهما أو يصيب وقد يمرض ويتألم، لأن داءً بشرياً قد ألم به.. وقد يصمت أو يتحدث وقد يسب ويلعن..هكذا خلقهم الله «بشراً».

وفي باريس.. بعيدا عن مصر – أتيح لي أن أعرف عددا من الكتاب من الوجه الذي لا يعرفهم منه أحد..

.. ولأنني حريص على أن نعرف «الشخص» من كل جوانبه وضعت هذا الكتاب.. بمعنى أنه صورة من قريب للشخص وليس سباً أو قذفاً لأحد أو انتقاما أو نكاية في شخص.. فقط وددت أن أسلط الضوء على الجانب الذي لا يعرفه أحد حتى تكتمل الصورة.. دون أن يُقلل ذلك من قيمة (من له قيمة) ويُصحح الصورة المأخوذة عن البعض ممن يرون أنفسهم في صور ليست منهم في شئ..

إنها صور من الجانب الآخر..

روجيه جارودي



..

حدد لي روجيه جارودى موعدا في بيته خارج باريس وشرح لي كيف أصل إليه في عليائه.. «وعلياء هنا» مهمة لأن بيت الرجل الذي يشبه الفيللا يقع علي جبل عال وسط المزارع ولا تحيط به منازل أخرى، والبيت يقع في ضاحية «شامبيون» التي كنت أعرفها وسبق أن زرتها قبلاً فقد كان يسكنها د. رأفت فودة وزوجته الفرنسية «إزابيل» والذي أصبح – بعد ذلك- رئيساً لقسم القانون الدستوري بكلية حقوق القاهرة.

كنت أسير مُتوجها إلى بيت روجيه جارودي، وعقلي يفكر في أول مرة سمعت باسمه، والحوار الذي أجرته إحدى المجلات معه لعلها «صوت الأزهر» إذا لم تخنى الذاكرة..

ولأنني كنت مشغولاً بدراسة الإمام محمد عبده، الذي اعتبره صوت العقل (العملي) في الدين الإسلامي، اقول كنت ارى أن روجيه جارودي أكثر «إشكالية» من محمد عبده أو إن شئت فقل كان دون الأستاذ الإمام بمراحل.. لا يُمجد العقل كما يمجده ولا يعلي من شأن المصلحة العامة كما يفعل الرجل...

باختصار كنت أذهب لملاقاته وأنا أفكر في أنني سوف ألتقي برجل كل ما يُقال عنه في مصر أنه استقر دينيا على الإسلام بعد أن تخلى عن كاثوليكيتيه ثم تمرد قليلا على مذهب (الماركسية..) ووضع فيها مؤلفات شتى.. وأخيرا دخل الحظيرة الإسلامية.

طرقت الباب ففتحت لي سيدة قصيرة نسبيا، وأومأت لي أن انتظر ريثما يهبط من أعلى السيد جارودي.. كانت السيدة تلبس لبساً متواضعاً حتى ظننتها الشغالة.. ولأنها كانت تحب الثرثرة فلقد عرفت أنها زوجته.. وأنها تعمل مُدرسة في مدينة «شيل» التي تقع في الضاحية الأخرى لباريس.. وشاءت أقداري أن أكون من سكان شيل وأولادي الصغار – في حضانة أطفالها.. بعد عدة دقائق هبط رجل عملاق بجسم ضخم.. ما أن حضر حتى انسحبت السيدة التي كانت تثرثر معي...

واكتشفت أن الدور الأرضي في الفيللا كان أشبه بمكتبة مليئة بالرفوف التي وقفت أمامها بينما كان يشرح جارودي بعض كتبه الخاصة بالعنصرية...

وفوجئت به يقول أن العرب اللبنانيين قد سطوا على هذا الكتاب وترجموه إلى اللغة العربية ثم باعوه دون أن يحصلوا مني على إذن أو تصريح بذلك.. واندهشت لتعليقه عندما قال: إن هذا هو شأن العرب دائما.. السطو والقرصنة..!!

ثم عرفت أنه لا يعرف من اللغة العربية سوى كلمة السلام عليكم أو صباح الخير.. شأنه في ذلك شأن كل من يدعي أنه يعرف اللغة العربية! واندهشت أنه رجل مُهتم بالدين الإسلامي وحضارته وتاريخه، ولا يعرف اللغة العربية التي نزل بها قرآنه المجيد..! ثم تطرق بنا الحديث، بعد أن جلسنا في الحجرة المجاورة – عن نبي الإسلام وهالنى أن الرجل يرى فيه ما لا نراه.. وأول هذه الأشياء التي صدمتني هو قوله بأن النبي محمد (ص) لم يكن شخصاً أمياً.. بل كان رجل أعمال ناجح بمعايير عصره.. وأضاف: في عصرنا الحالي لا يمكن أن تصف رجل أعمال (بالناجح) ما لم يعرف لغات أخرى غير لغته الأم.. ويتقن البحث على الإنترنت.. ويعرف شيئا من العلاقات السياسية الدولية ناهيك عن نبوغه في التجارة البينية والاقتصاد. لذلك –هكذا قال- لا أعتبر نبي الإسلام –كما يقال عادة – أمياً وجاهلاً ولا يعرف القراءة والكتابة!..

أقول الحق.. لم أعلق واكتفيت بتوجيه الأسئلة لكي أعرف المزيد عن هذا الرجل الذي كنت أجهله ولم يسبق أن التقيت به قبلاً.

أذكر أني عرفت منه أنه أعلن إسلامه في باكستان بعد أن اعتنق الدين الإسلامي في سفارة المملكة العربية السعودية هناك.. ثم روى لي شيئًا عجيبا.. قال: لم أختر لنفسي اسم رجاء.. ولكن عندما ذهبت إلى السفارة، جاءوا بأحد المشايخ وظل السفير وعدد من الدبلوماسيين يتحدثون معه.. بعد أن طلبوا من جارودي أن يجلس بالقرب منهم.

وبعد نقاش – يبدو أنه كان طويلاً بعض الشيء قرروا إطلاق اسم «رجاء الدين» على الرجل باعتبار أن اسم «رجاء» أكثر الأسماء قربا من اسمه الأصلي روجيه!!.

وعرفت أنهم قاموا بتعريب اسمه على هذا النحو لكي يكتبوا اسمه الجديد في الشهادة الممهورة باسمهم والتي تشير إلى أن الرجل اعتنق الدين الإسلامي.

ولقد تعجبت من روجيه جاودي وهو يقول مُعلقا: فوجئت بأن اسمي أصبح «رجاء» لا «روجيه».. وأدهشني أنهم يربطون الإسلام بالعروبة: فمن قال أن الدين الإسلامي الذي جاء للناس كافة، يدخله من يشاء وقتما يشاء هو دين جاء خصيصاً للعرب.. بمعنى آخر لماذا يُصر السفير وزملاؤه من الدبلوماسيين على «إلباس» الدين الإسلامي جلباباً وعقالاً... ثم ما الذي يمنع أن يكون اسمي «روجيه» وأن أحتفظ باسمي الفرنسي عندما أعتنق الدين الإسلامي..؟ أليس ذلك ترجمة حقيقية للدين الإسلامي الذى بُعث للناس كافة واندهشت أكثر عندما قال روجيه جارودي، كنت أرجو أن يتركوا اسمي كما هو دون تغيير أو تبديل. فماذا يمنع من أن يكون اسمي الفرنسي روجيه.. واسم غيري (صيني).. واسم ثالث (باكستاني) واسم رابع (أفريقي).. ثم ندخل جميعا الدين الإسلامي باسمائنا!

عرفت بطريق المصـــادفة أن روجيه جارودي كان زوجا لسـيدة من أصـل فلسـطيني.. قبلت أن تكون الزوجة الثانية في حياته بعد زوجته الفرنســية التي فتحت لي الباب.. وأخذت تثرثر معي حتى جاء.. فلقد طلب مني ما إذا كنت أعرف سفير دولة قطر في باريس فقلت نعم.. فقال إنني أريد تأشيرة دخول.. وكذلك زوجتي تريد تأشيرة من الأردن.. في نفس الوقت..

وفي مكتب ســفير قطر وكان من عائلة (العطية) حســبما أتـذكر تولى فيما بعد منصــب أمين عـام مجلس التعـاون الخليجي.. كـان لقـاؤنـا في اليوم التـالي.. وأذكر أن الســفير القطري قد احتفى بروجيه جارودي.. وأخذ يناقشــه في المركز الذي أقامه لحوار الأديان في أسبانيا؟ وسهل له تأشيرة الدخول وكذلك ابرق لسفارة قطر في الأردن لكي تمنح زوجة جارودي تأشيرة الدخول أيضـاً.. وقام روجيه جارودي بالاتصـال – من مكتب الســفير القطري - بأحد فنادق قطر وحجز لنفســه ولزوجته حجرتين متجاورتين.

وعنـدما رجعـت إلي بيتي.. فتحـت مظروفـاً كـان قـد أعطانيه روجيه جارودي بنفســـه فوجدت فيه بعض أعداد من مجلة كان يصدرها باللغة الفرنسية اسمها «شمال – جنوب» حاول أن يحصــل من ســفير قطر على دعم مالي لها.. لكنه لم يجد – أمامي- غير التســويف والمراوغة وكنت عرفت أن روجيه جارودي يعتمد في إصـــدار هذه المجلة على عدد من الطلبـة المغـاربـة الـذين يقومون بـأمور الترجمـة والطبـاعـة والتوزيع مقـابـل أجر رمزي.. وكـانـت تتحـدث عن إفلاس المجتمع الغربي وحضـــارته المزيفة والقيم الإنســانية الغائبة عنه.. مؤكدا في دراســاته أن الانتحار يحصـد شــباب أوربا وكذلك تقضي عليهم المخدرات..

أياً كان الأمر كان الرجل يكتب عن مثالب الحضـــارة الغربية ويرى أن شـــمس الإســـلام هي الوحيدة التي ســـتظل تضيء حتى نهاية العمر..

***

يبدو أن روجيه جاروي قد سافر إلى قطر.. فلم يتصل بي وحسبى أن قمت بدور همزة الوصل بينه وبين السفير العطية.. وانتهى كل شـــيء.. إلى أن التقيت به بعد سـنوات في معرض كتاب القاهرة، وكتبت عن الندوة التي أقامها في المعرض. وهالني أنه عاد أكثر وجدانية وغابت لغة العقل عنه فتحدث عن الدين الإسلامي حديثا غيبياً غير مُثمر.. ولاشك أن أفكاره الجامدة بهذا الشكل قد راقت الكثيرين.. لكن – أقول الحق - لقد ظل الأســـتاذ الإمام في نظرى نبراســـا هاديا للعقل والعقلانية بينما فضل جارودي أن يكون جوانبا من (ساسه لراسه) مثل صاحب المذهب.. عثمان أمين..

.. وأخيرا إذا حدث وخطر روجيه جارودي ببالي ســـألت نفسى مرارا وتكراراً:

لماذا كذب عليّ روجيه جارودي ولم يقل لي أن السيدة التي فتحت لي الباب هي زوجته.. ولماذا لم يعرفني بها أصلاً..

ثم لماذا أخفى زواجه من الســـيدة الفلســـطينية التي طلب إعطائها تأشيرة دخول من الأردن إلى قطر..

ثم ما ســـبب تحوله من العقلانية إلى الجوانية في فهم قيم الدين الإسلامي..

إنها أسئلة ستظل تبحث عن إجابة؟!

أنيس منصور



..

عندما علمت السـيدة الفاضـلة زوجة الكاتب الكبير أنيس منصـور أنني من المنصـورة حتي قالت لي في شـبه شـماتة: رغم أن المنصـورة مشـهورة ببناتها الجميلات إلا أن أنيس قد تركهن واختـارني لأكون زوجتـه! كـان ذلـك في اسـتراحـة مسـتشـفى «هوتيل ديو» الكائنة بالقرب من الحي اللاتيني في سـان ميشـيل الذى كان يُعالج فيه أنيس منصـور من جلطة في الرجل جاءته –حسـبما قال لي- من أثر جلوسـه على المقعد لساعات طويلة ينجز فيها كتابا عن الرئيس السادات!

ولم يحدث أن أنيس منصور وضع كتابا جديدا عن السادات اللهم إلا كتابا قام بتجميعه وكان قد نشـره مُنجما – على حلقات في مجلة أكتوبر التي أصـدرها له السـادات في مؤسـسـة دار المعارف مُجاملة له، من ناحية فقد كان نديما له في سـهراته – ولكي يكون لسـان حالة يقرظه ويدافع عنه وعن نظامه من ناحية أخرى.

ومما أذكره في هذه الفترة أن عبد الرحمن بدوي كان يقول عنه أنه يكذب كما لو كان يتنفس. وأنه كان يكذب على نفسه إذا لم يجد أحداً يكذب عليه.

ولمن لا يعرف أن د. عبد الرحمن بدوي كان أسـتاذا لأنيس منصـور ويعرفـه جيـدا – كمـا يعرفـه من عموده اليومي «مواقف» الذي كان ينشره في الأهرام يوميا..

وأقول الحق إن أنيس منصـور عندما قال إنه قد أصـيب بجلطة في ساقه بسبب جلوسه على المكتب لفترات طويلة لأنه كان يُعد لإصـدار كتاب عن السـادات.. ولأنه لم يصـدر أي شـيء.. تذكرت على الفور ما كان يقوله أسـتاذه عبد الرحمن بدوي من أن كان بارعًا فى الكذب.

وفي المستشفى الباريسي الذي ظل فيه أنيس منصور قرابة الشهر أذكر أننى جلست بالقرب من سريره.. فابتدرني قائلا: إنني لو كنت في مكان رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير الأهرام (وقتئذ)، لأخذت صلاح الدين حافظ وقدمته إلى الرئيس السابق مبارك ليكون رئيسا لتحرير الأهرام خلفا له. ولا أدري ما السبب في قوله ذلك.. ولماذا لم يقل ذلك بنفسه وكان يكتب عموداً «يوميا في الأهرام»..

وكان الحديث في ذلك الوقت يعلو حينا وينخفض حينا آخر عن تغيير مُرتقب فى بعض القيادات الصحفية (وعلى رأسها طبعا الأهرام..)

وأذكر أني كتبت خبرا عن أنيس منصور وعلاجه في باريس ورأي بعض الأطباء في ذلك، فغضب ابن زوجته الذي كان مرافقا له.. عما كتبت.. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أعرفه فيها..

أما ابنة زوجته، وكانت تعمل صحفية بالأهرام فيرُوى – والعهدة هنا على الراوي- أنه كان يذهب إلى مكتب رئيس التحرير ويجلس فوق المكتب كالأطفال.. ولم ينزل إلا بعد أن أصدر رئيس التحرير قرارا بتعيينها مسئولة عن الصفحة الأخيرة وصفحة التليفزيون اليومية.. والغريب أن هذا الوضع الشاذ قد استمر في السنوات الأخيرة لإبراهيم نافع وسنوات أسامة سرايا الذي جاء بعده.. ولم تتغير إلا بعد أن جاء محمد عبد الهادي علام رئيسا للتحرير فأبعد ابنة زوجة أنيس منصور ليحل محلها سمير شحاته وهو من أقدر من كانوا في القسم... لكن أبعده إبراهيم نافع لإرضاء أنيس منصور وابنة زوجته. من ناحية ثم لأن سمير شحاته كان مسيحيا ومن ثم كان لابد من اضطهاده!! من ناحية أخرى

***

كنت أذهب يوميا إلى المستشفى لأرى أنيس منصور لأني كنت بلدياته كما يقول.. من المنصــورة ولأنه كان تلميذ عباس العقاد وأنا كنت مُهتما بالأخير وأعددت أطروحة دكتوراه عنه تُعد الأولى عن العقاد في باريس،

وكنت التقي هناك بموفد وكالة أبناء الشـرق الأوسـط الذي أصـــبح بعد ذلك رئيســا لمجلس إدارتها وعرفت من أنيس منصـور «أن موفد الوكالة إياه كان يعد له (حلة محشـي).. كان يحملها في عربته الخضراء يوميا..

ولذلك كنت إذا قرأت عمود أنيس منصـــور وهو يتكلم عن رئيس مجلس إدارة الوكالة.. أتذكر على الفور «حلة المحشي» الذي كان يحملها لأسرة أنيس منصور في باريس!

كما أتذكر السـجادة الإيراني التي اشـتراها براتبه الشـهري كله وأهداها إلى رئيس مجلس إدارة الوكالة الأسبق كي يرسله موفدا للوكالة في باريس وكان موفدا للوكالة فى الجزائر!

هكذا قال لي موفد الوكالة بنفســه.. وكأنه يقول لكل شـــيء ثمن يا صـــديقى فقلد جئت إلى باريس بســـجادة إيراني.. ثم أصبحت رئيسا لمجلس إدارة الوكالة لاحقا بكام حلة محشي!

.. وفي إحدى المرات، التقيت بأنيس منصـــور في مكتبه بالأهرام فأثار اشـمئزازي عندما قال لي: إن الكون كله قد خُلق من أجل خدمتي! أي أن كل ما يراه جاء إلى الكون لكي يخدم أنيس منصور نفسه..!

وهذا فكر استعلائي لم أسمع به قط عند أحد! لكن ما الحيلة وقد كان يؤمن بذلك حتى رحيله.

مع أنه لم يترك شـيئا مهما سـوى مجموعة من الترجمات المُعربة كان يسـطو عليها مثل كتاب «العظماء مائة.. أولهم محمد»! الذي نكتشف إذا تأملنا الأصـل الإنجليزي للكتاب أنه قام بتحريفه فضـلاً عن أنه لم يؤلفه قط قام بتعريبة ورغم ذلك كان يقول عن نفسه أنه المؤلف. حسبما يذكر الكتاب في مقدمته وعلى غلافه أيضا!

وسمى نفسه فيلسوف الفقراء... مع أنه لم يعرف من الفقر شـيئا وكان يكرهه معظم الناس في مصـر حتى أبناء المنصـور بلدته. وقد وطد علاقته ببعض محافظيها الذي كان يجلس معهم، وأقنع أحدهم وكان أحد أثرياء المحافظة (الذي كان موضـوعا على غلاف مجلة أكتوبر). أن يصـنع له تمثالاً وطلب أن يضـعه له المحافظ في شـارع الثانوية الذى درس فيه في صـباه فكان له ما أراد. لكن الصـبية كانوا يضـربونه بالحجارة كل مسـاء وأمام العدوان الدائم على التمثال نقله المحافظ إياه إلى مكان بالقرب من شـاطئ النيل.. وعندما كان يتصـل به أحد الصـحفيين لعمل حوار كان يرفض أما إذا اتصـلت به فتاة أو سـيدة فكان يوافق على الفور.. ثم يختار من بينهن الراغبات في الشـهرة الضـعيفات في الثقافة حتى يُملى عليهن ما كان يُريد أن يُؤثر عنه..

باختصار لم يكن فيلسوفا للفقراء كما كان يجب أن يروّج عن نفسه وإنما كان صديقاً للأغنياء ولأصحاب المناصب العليا، ومن أوائل المطبعين مع العدو الإسرائيلي!!

وفي إحدى المرات توجه عشرات من مثقفي المنصـورة نحو تمثال أنيس منصـور يريدون هدمه.. لكن محافظ الدقهلية في ذلك الوقت عرف بالأمر فعقد لقاءً. مع بعضـهم وجاء بأنيس منصـور لكي يعتذر لهم عما كتبه وواصفا شعب المنصورة بالحمار الذي تركه خارج ديوان الحكم وقتئذ!

ثم ماذا ترك أنيس منصور لأهالي المنصورة.. لاشيء! لم يحدث أن أقام مدرسة تحمل اسمه، أو حتى مستشفى أو أي مشروع خيري فقط كان يتحدث عن المنصورة باعتبارها مسقط رأسه.. فكان أول من رجح لغة «الإقليمية» في مصر بمعنى أن بعض الكتاب اقتدوا به فكتبوا أنهم من المنوفية أو الشرقية أو البحيرة. فكأنه زرع شيئا مقيتاً وهو الزهو بمسقط الرأس الذي يأتى عادة ضد كينونه مصر – الوطن – الأم..

ويفتخر أنيس منصور بأنه وضع كتابا عن العقاد أسماه: «في صالون العقاد. كانت لنا أيام..» ثم لم يستح أن يكتب باسم دار النشر أنه العقاد في صالون أنيس منصور.. وقال حواديت لا أول لها ولا آخر الى حد أنني أثناء إعدادي لأطروحة الدكتوراه عن العقاد «أضطررت أن أقرأ الكتاب.. لكن لم أجد معلومة واحدة مُوثقة لكي أنقلها في أطروحتي.. والسبب أنه كان يتكلم عن نفسه ولا يتكلم عن الأستاذ العقاد.. والحق أن هذا الكتاب قد وضعه ليس ليؤرخ لصالون أستاذه العقاد وإنما لكي يُمتع به السادات الذي كان يُشيد بحلقات الكتاب في أكتوبر وهنا أستعير ما قاله أستاذه عبد الرحمن بدوي من أن أنيس منصور كان يكذب كما لو كان يتنفس!!

في المنصورة.. مسقط رأسه. لا يوجد شيء يدل على أنيس منصور سوى مجموعة مُهلهلة من الكتب اضطر محافظ الدقهلية أن يضعها مع باقي الكتب في مكتبة المنصورة العامة..

أي أن أحد لا يذكره.. ولم توضع كتبه إلا لأن محافظ الدقهلية على صلة قرابة بالأديب أنور المعداوي .. ومن ثم له صلة بالكتب. ولذلك وضع ما أرسلته أسرة زوجته ضمن أرفف مكتبة المنصورة العامة.

***

والحق أقول أن أنيس منصور كان يحتفى بصدور أي كتاب له وكان يفرح به كطفل.. وأذكر أن رددت يوماً على الهاتف في باريس واكتشفت أن أنيس منصور على الطرف الآخر يتكلم من جنيف وقال لي.. هل رأيت كتابي الجديد إن اسمه: البقية في حياتي! فأجبته لم أره وسأشتريه قريبا فقال لي مُنتشيا: لا تشتري الكتاب وعندما آتى إلى باريس سوف أعطيك نسخة!

وبعد أن عدنا إلى القاهرة وعرفت أن دار النشر التي تنشر لي اختارت أنيس منصور من بين كتّابها.. وكنت علمت من المسئول عن النشر أنه طلب كتابا من أنيس منصور فقام هذا الأخير بتجميع عدد من المقدمات التي نشرها في كتبه السابقة ثم أعاد نشرها في كتاب يحمل اسم «منتهى الحب»

أريد أن أقول أن أنيس منصور قد انتهى ككاتب منذ سنوات قبل رحيله بمعنى أن كتاباته عن الغربة أو الصاعدين إلى السماء أو الهابطين إلى أرض أو كونه نديماً للسادات أو عرابا لإسرائيل والصهيونية أو مادحا لمبارك.. كل هذه الأشياء لم تعد تُسلي أحدا.. والدليل على ذلك أنه كان يتصل بمكتبه طالباً من سكرتيرّيه إعادة نشر سلسلة «مواقف» التي كان قد كتبها ونشرها منذ عدة سنوات..

باختصار لقد مات أنيس منصور منذ سنوات قبل أن يموت فعليا ويرحل عنا في عام ٢٠١٢.

***

وأخيرا فوجئنا ذات يوم بأن الكاتب الصحفي أنيس منصور قد حصـــل على جائزة الدولة التقديرية. ورجحت كفته على أســـتاذ الأدب العربي ورئيس المجمع اللغوي الدكتور شـــوقي ضـــيف لا لشـــيء إلا لأن وزير الثقافة وقتئذ والمحيطين به جاءتهم تعليمات رئاســـية بأن يعملوا جهدهم لكي يفوز أنيس منصور..

وأحســـب أن هذا الفوز ســـبه في جبين النظام الســـياســـي المصري السابق.. لأن أنيس منصور إذا فاز في مواجهة كاتب صـــحفي آخر ربما كان ذلك قد مبرراً.. أما في... في مواجهة أســتاذ مرموق في الأدب العربي تملأ كتبه الفاترينات وينتشــر تلاميذه في أقاصـــي الدنيا وأدناها مثل الدكتور شــوقي ضــيف فهذا مما نعجب له ونســـجل اعتراضـــنا عليه لكن ما الحيلة وأنيس منصــور فاز بأوامر عليا.. والله للضــعفاء من قبل ومن بعد!

أحمد عبد المعطي حجازي!



..

كان يأتي كل أســـبوع ليرســـل مقالته إلى الأهرام.. وكنت أحظى بلقائه لأنه كان يجلس على مكتبي ليقوم بكتابة مقالته – إذا لزم الأمر أو ليعطيني ما كتبه لإرســـاله على الفاكس الذي كان في مكتبي!

وأذكر أنني نبهتــه يومـا بـأن بنطلونــه مقطوع فلم يكترث وأمســك به بيده اليســرى، والقلم مازال في يده اليمنى.. وأخذ يكتب دون أن يبالي.. وعلمت أن الأهرام كان يدفع له مبلغا ضـئيلا من المال وبالعملة المصـرية مقابل مقاله كان ينشـرها يوم الأربعاء من كل أسبوع.

وفي إحدى الأمسيات التقيت بالمستشـرق الفرنسـي الكبير جاك بيرك الذي قال إنه يجل كثيراً أدونيس ويعتبره،« شـاعراً كبيرا بل هو – على حد وصــفه – شــاعر العرب الكبير.. أما أحمد عبد المعطى حجازي.. فلا تبلغ قامته شيئا بجوار أدونيس .. وهذا لا يمنع من أنه شــخص هكذا قال جاك بيرك – ظريفاً إذا شرب بعضا من نبيذ مُعتق وتحرر من قيوده.. وأخذ يتكلم!

والحق أن أحمد عبد المعطى حجازي كان لا يضـــمر إلا الســـوء لأدونيس وأذكر أنه في إحدى المرات التي زار فيها مكتـب الأهرام في بـاريس اقترح عليّ أن أجرى حوارا مع شـخص (من الشام) أذكر أنه كان يدعى «كاظم جهاد» وضـع كتابا في الفكر العربي المعاصر.. وأعطاني رقم هاتفه وحددت معه موعداً...

واكتشـــف أن كاظم جهاد وضـــع كتابا منذ فترة بعنوان «أدونيس منتحلاً» وأنـه يســكن بجوار جامعـة الســـوربون وتحديدا في ســاحة المقاهي الشــهيرة، والتي يتوســطها تمثال أوجست كونت عالم الاجتماع الشهير!

وأقول الحق لقد أجريت الحوار الذي تطاول فيه كاظم على أدونيس ونعته بأقزع الألفاظ لكننى لم أنشـــر هذا الحوار لأنني شـــعرت أن أحمد عبد المعطي حجازي قد غرر بى وخدعني عندما قال أن شـخصـا «لبنانياً» سـوف يتحدث معي عن الفكر العربى الحديث.. بينما هو يعرف أنه لن يتحدث معى ســوى عن أدونيس.. ثم لأنـه تطـاول على الرجل في كتـابـه أي أنـه اغتابه ولم أشـأ أن أنشـر سـبابه لأن الأهرام أكبر من أن ينشـر هكذا ألفاظ!

وأشـهد الحق أن أحمد عبد المعطي حجازي لم يسـألني عن مصـير الحوار وإن كان قد اكتفى بأن سـألني عما إذا قد التقيت بكاظم جهاد أم لا.. فقلت نعم!

لكن مـا دفعني إلى عـدم نشـــر الحوار مع مؤلف كتـاب أدونيس منتحلاً أنني كنت أعرف أن الشـــاعر المصـــري على خلاف مع الشاعر السوري.. وأنه يريد النيل منه أو على الأقل التلاعب في قناته وتشـويه صـورته.. خصـوصـاً مع المهتمين بتاريخ الأدب كحالى..

واذكر أن الوقيعة بين الرجلين كانت مُســتحكمة، فقد انتهز أحمـد عبـد المعطي حجـازي إعـادة طبع كتـاب «الثـابـت والمتحول» في التراث العربي للشـــاعر الكبير أودنيس، وكتب معلقاً على الكتاب واتهم المؤلف بالشـعوبية. وأنه شـيعي بكره إلى حد كبير أهل الســـنة. وأغلب الظن أن الشـــاعر أحمد عبد المعطي حجازي كان في الســلطة الســياســية في ذلك الوقت والتي كانت تناصب إيران العداء.. وضمن أسلحتها الفتاكة في هذه المعركة كانت الإشارة إلى المذهب الشيعي!

أياً كان الأمر لقد كتب أدونيس تصحيحاً أو رداً واتصل بي وكان أدونيس يعمل في اليونسكو مسئولاً عن الطبعة العربية لمجلتها كما كان يصدر مجلة «مواقف» التي تعني بالتراث العربي..

فذهبت إليه على الفور .. وحدثني الرجل بتهذيب شديد عن حقه في الرد.. ولم أكن أعرف أنه اتصل حسبما أظن بالشاعر أحمد عبد المعطي حجازي فلم يرد عليه..

وأشهد أن أدونيس كان حذرا في التعامل معي ربما ظناً منه أنني كنت من ميليشيات حجازي أو من التلاميذ الذين لا يرون في سماء الأدب العربي سوى نجمه! المهم أنني أخذت المقالة وتحدثت من مكتبي – بصعوبة طبعا مع الناقد سامي خشبة الذي هالني أنه كان مُتحاملاً على أدونيس ورفض نشر مقالته وقال: أرجو أن تخبره بأن الأهرام لن ينشر رده وليذهب بها إلى أقاصي الدنيا.. فقلت له.. سوف ينشرها في «الحياة» حيث يكتب فقال لي بحزم لينشرها في أي مكان.. لكن الأهرام – الدولي أو المحلي فلن ينشرها له..

ثم أغلق الناقد سامي خشبيه في حدة الهاتف وعرفت أن أحمد عبد المعطي حجازي قد تحدث مع سامي خشبة ونجح في أن يزرع في داخله كراهية أدونيس! وما كان بي سوى أن اتصلت – بعد عدة أيام – بالكاتب الكبير لطفي الخولي!

واعترف أن الرجل قد انزعج كثيرا وقال لي أرسلها لى فورا وسوف أقوم بنشرها في صفحة «فكر قومي».

ولأنني كنت أعرف أن لطفي الخولي مسئول عن صفحة الفكر القومي الأسبوعية وكان معه الأستاذ شعلان وكذلك الصحفي خالد السرجاني، فلقد أرسلتها إليه وفوجئت بأن المقالة قد نشرت في الأسبوع التالي مباشرة ولا أعرف هل سُر من ذلك سامي خشبة أم أحمد عبد المعطي حجازي.. لكن ما أعلمه أن لطفي الخولي قال لي: من حق أدونيس أن ينشر رده.. بل من حق أي مثقف عربي أن ينشر في الأهرام... وإذا كانت هناك ردود أخرى فأرجو أن تبعثها مباشرة إليّ.. فالأهرام لكل العرب وليس فقط للمصريين!

وأشهد أن هذه المشكلة بين أحمد عبد المعطي حجازي وأدونيس كانت سببا في صداقة قوية جمعتني بالكاتب الكبير لطفي الخولي.. الذي كان يأتي كثيراً إلى باريس ويطلب أن أصطحبه في جولاته ومنها جولة كانت في جريدة الهومانتيه وأخرى كانت في جريدة الشام ولقائه بصاحبها رفعت الأسد الذي كان يعطيه شقة في عماراته البارسية؛ والثالثة كانت إلى البريزونيك أشهر سوبر ماركت في العاصمة الفرنسية وفي إحدى المرات أصرّ الكاتب الكبير لطفي الخولي أن يدعوني إلى العشاء معه في مطعم (بيتزا بينو) الشهير في باريس. وأذكر أنه قال لي بالحرف الواحد شيئين لا يمكن أن أنساهما الأول أن رئيس الدولة ويقصد الرئيس مبارك وقتئذ كان يسأله عن بعض الأشخاص يريد أن يعرف رأيه فيهم فيقول له ما يعتقد أنه الصواب دون تجن على أحد لأنه (كبير في السن) وليس طامعاً في أن يشغل منصباً حكومياً مهما كبر هذا المنصب أو صغر.. ناهيك عن أنه لا يريد من هذا وذاك أن يكون زوجا لابنته الوحيدة لأنها متزوجة أصلاً وسعيدة في زواجها! أي أنه كان يُخلص في نصائحه للرئيس دون أن ينتظر جزاء ولا شكوراً..

وسألني عن رأيي في مدير مكتب لندن وكان في ذلك الوقت د.عمرو عبد السميع فقلت أنه جيد وشغله ظاهراً في الجريدة رغم عدم معرفتي الشخصية به.. ثم سألت.. لماذا تسأل عنه! قال: لأنني الذي رشحته إلى إبراهيم نافع رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير الأهرام آنذاك.

***

وأذكر أني ذهبت إلى الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي في بيته الواقع في شارع (لاسانتيه) في باريس.. وفوجئت به يُجري حوار لإحدى الجرائد الخليجية ثم تحدث بعد ذلك لإحدى القنوات..

وسر المفاجأة أنه كان يتقاضى أجراً عن المقابلتين لكن عندما سألني: وأنت ستجري حوارا لأية جريدة؟.. فقلت له: إلى الأهرام.. ضحك وقال: أنت أبو بلاش.. هيا بنا. وتحدثت معه حوالي نصف الساعة، ثم نشرت حديثه في صفحة صباح الخير يا فرنسا التي كانت تصدر في الأهرام الدولي كل أربعاء..

وفي إحدى المرات ذهبت إلى سوق داليجر وهو سوق قريب من محطة الباستيل الشهيرة وعرفت من أكثر من شخص أن الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي كان يذهب إلى هناك في صباح كل يوم الأحد، وكانوا يطلقون عليه اسم «دكتور».. ولمن لا يعرف فهو سوق يعمل فيه عدد لا بأس به من المصريين وهو رخيص إذا ما قورن بباقي الأسواق الباريسية.. ولأن الرجل كأنه رقيق الحال – حسبما يبدو فكان يذهب إلى هذا السوق وكان يرفض أن يحصل على مشترواته مجانا كما قال أحد العاملين في السوق! وأشهد أن البائع كان فخورا لأن الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي كان يشترى منه.

وفي إحدى المرات جلس الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي في مكتبي في باريس.. ودار حوار مُتشعب أذكر منه أنني سألته عن سر إصراره على أن يكتب اسمه ثلاثيا.. ولماذا لم يكتب باسم أحمد عبد المعطي أو أحمد حجازي فقال لي أنه عمل لأول مرة في دار الهلال.. وكان أول موضوع يكتبه هو تحقيق عن الدراجات.. وصدر العدد وبه هذا التحقيق الذى اختار سكرتير التحرير (اسمه ثنائيا كما يلي: (تحقيق: أحمد حجازي) وعندما سأل والده – وكان فرحا بذلك – هل رأيت التحقيق الذي كتبته يا والدي.. فقال له في لهجة صارمة: نعم قرأته لكن لن يعرف أحد انك ابني.. فأحمد حجازي اسم لكثيرين لست منهم أنا.. ففهم شاعرنا أن والده غير مسرور بذلك.

وهنا نصح سكرتير التحرير بأن ينشر اسمه ثلاثيا.. ولأن الناس قد اعتادوا عليه فلقد تركه ثلاثياً حتى عندما كتب الشعر. فاندهشت كثيرا أن شاعر مصر كان في الأصل صحفياً مغموراً! عندما رجعنا إلى مصر.. اكتشفت أن مكتب أحمد عبد المعطي حجازي يتجاور مع مكتبى وأذكر أني بين وقت وآخر كنت أجلس معه خصوصا يوم الثلاثاء عندما كان يأتي إلى الأهرام ليقرأ مقالته ويصحح أخطاءها المطبعية قبل النشر..

وذات مرة سألته عن سبب عزوفه عن كتابة سيرة حياته..فهو قد مر بتجارب خصبة وتقدم به العمر بحيث أن ما سيكتبه سيكون مفيدا لكل من يقرأه..فقال لي: لن يحصد من كتابه هذا سوى الحنظل..فهل سمعت هكذا سألني عن أديب كبير ربح من كتابة سيرته وقبل أن أجيبه قال أن كتابة مقالة هنا أو هناك لهي أفضل ألف مرة من كتابة السير الذاتية.

وفي المرة الأخيرة التي جاء فيها إلي الأهرام أقحمت نفسي عليه لكي أسمع منه مباشرة رأيه.. فقال لي : لا رئيس التحرير الحالي «سلامة» يعرفني ولا أظن أنه قرأ لي: وكذلك «الولي» رئيس مجلس الإدارة أنني يا بنى أعمل في الأهرام منذ ١٩٦١ .. واحتراما لنفسي ألا أعود ثانية حتي لا يلعب بي هؤلاء.. ثم علمت بعد ذلك أنه ذهب إلى الخزينة وبدلا من أن يتقاضى ستة آلاف جنيه وجدهم يسلمونه ١٥٠٠ جنيه فقط..

واحتراما لنفسه ترك الأهرام ومدافعا قال المسألة ليست فلوس أنها مسالة كرامة.. وكرامتي يا صديقى لا تسمح بأن يفعل «رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير» ما فعلاه ..فضلاً عن أن هناك عروضاً أخرى من جرائد شتى سوف أقبلها على مضض لأنها ترحب بي. لكني لو كان الأمر في يدي وأنا في التسعين من عمري لما تركت الأهرام.. لكن ما الحيلة والجورنال (يصغر يوما بعد يوم..)

***

لقد أزعجني كثيراً أن علمت بأن الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي كان يدافع بكل قوته عن وزير الثقافة فاروق حسني عندما رشح نفسه مديراً لمنظمة اليونسكو وحوّل ميزانية الوزراة للإنفاق على حملته الانتخابية.

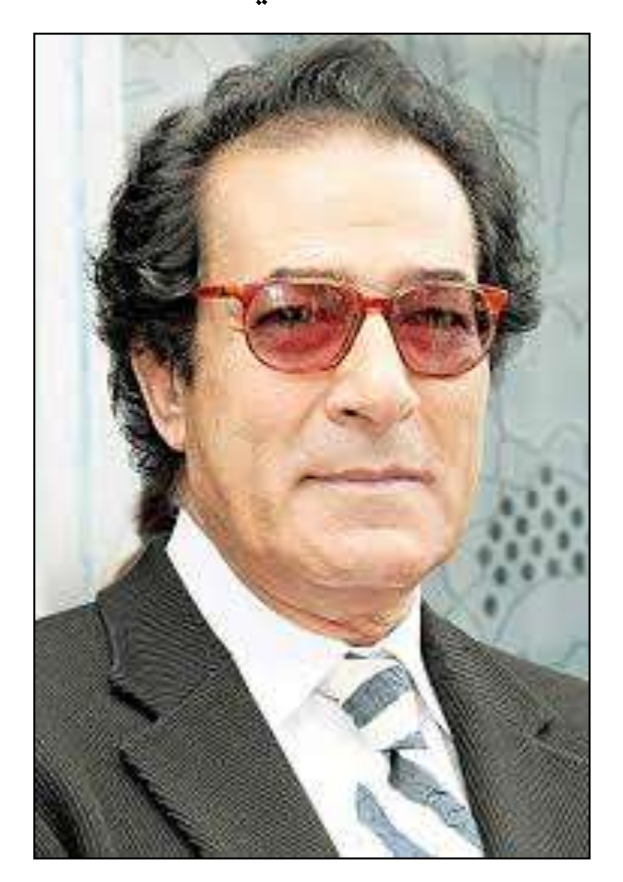
ولقد حزّ في نفسي ان يدافع أحمد عبد المعطي حجازي عن فاروق حسني ردا للجميل، فقد اختاره ليكون رئيسا لتحرير مجلة «إبداع».

ولأنني كنت ضد الترشيح ويعرف كل شخص في الوزارة موقفي وأغراني فاروق حسني بأن أكون وكيلا لوزارة الثقافة للشـــئون الثقافية الخارجية فلقد شـــرحت لأحمد عبد المعطي حجازي أنني لا أوافق على ترشيح فاروق حسني لأنه فاشل في إدارة ديوان وزارة في بلد هي وزارة الثقافة في مصـــر فكيف نرشـحه ليكون وزيراً لثقافات العالم. فاســتمع أحمد عبد المعطي حجازي في أدب وقال ولكن الدولة تريده يا بني .. فقلت .. ولو!!

ورسب فاروق حسني، وخرج رئيس الدولة و.... وقال له: ارم يا فاروق وراء ظهرك.. وكلنا كان يعرف أنه كانت تربطه بأسـرة مبارك علاقات ووشـــائج جعلته يأخذ موقفا مناهضـــا للحجاب في دولة إسلامية، وحرق أكثر من ٥٠ مبدعا مصرياً في مســرح بني ســويف.. وردم النيل وأقام عليه قصـــرا منيفاً وفعل مصــــائب الدنيا والآخرة لكن زوجة الرئيس المخلوع كانت تقف معه ضد شعبنا..فكان الخسران المبين لهم جميعاً..

وأحســـب أن أحمد عبد المعطي حجازي قد نال من هذا الخسران جانباً!

فاروق حسنـي



..

فجـأة وجـدت حركـة غير عـاديـة في مكتـب الأهرام في باريس.. سـعادة غامرة على الوجوه.. واتصـالات لإيطاليا وأخرى للقاهرة.. ومدير المكتب في حالة نشوة.. وعندما سألت عن السـبب قالت لي السـكرتيرة: لقد اختاروا المدعو فاروق حسني وزيرا للثقافة. أقول الحق لم أكن أعرف هذا الـ«فاروق حسني» ولم يسبق لي أن صادفت اسمه «وعندما استفسرت عمن يكون قالوا لي: لقد كان في باريس مسـئولاً عن المركز الثقافي المصـري في سـان ميشيل عندما كان عاطف صـدقي مستشارا ثقافيا.. ثم ذهب بعد ذلك إلى روما كمدير لأكاديميتها.. وهو في الأصـل فنان تشـكيلي (متواضـع) من الإسـكندرية، وغير متزوج حتى الآن، وعمـل معظم وقتـه في الخـارج وتربطـه علاقـات طيبـة بـأنـاس متواضـعين فى عملهم من المغرب العربي أو من فرنسـا.. لكن لم يؤثر عنه أن تقلد عملاً مهماً.. فقط كانت تربطه علاقات وطيدة بعناصـر تعمل في المخابرات المصرية- على عادة هذا الزمان، وقيل بعد ذلك أنه كان يكتب تقارير مخابراتية عن بعض الطلبة..

المهم لقد أصـبح هذا الفنان المغمور وزيراً للثقافة، واذكر أنه قد قامت الدنيا ولم تقعد عندما تم اختياره ليكون ضـمن التشـكيل الوزاري الجديد.. واعترض كبار المثقفين المصـريون أمثال الكاتب الكبير زكي نجيب محمود، والكاتب الكبير عبد الرحمن الشـرقاوي.. وعندما ثار جدل حول هذا الاختيار إذ كيف يدير شخص غير معروف القوى الناعمة المصرية؟ وكيف يكون هذا الفنان الذي تربطه علاقات وطيدة بأناس عاديين أو شـعبيين من المغرب العربي مسـئولا عن الثقافة في مصـر التي تفخر بأنها أنجبت ثالوث الفكر: عباس العقاد وطه حسـين وتوفيق الحكيم.. أيا كان الأمر لقد قطع لويس عوض – حسـبما قال لي – هذا الجدل وترك أصـدقاءه من المثقفين.. وزرر الجاكتة ودخل على الوزير الجديد يهنئه، ويبارك خطوة اختياره.

وكتب عبد الرحمن الشـرقاوي – يرحمه الله – رافضـاً أن يعتلي كرسـي الوزارة هذا الفنان الذي لا يعرفه أحد حتى أهل الفن في القاهرة! وقيل وقتها أن هذا الاختيار جاء بتوصـية من زوجة الرئيس السابق مبارك لأنه عندما كانت تذهب إلى روما وقت أن كان زوجها نائبا لرئيس الجمهورية، كان لا يهتم بها أحد سـوى مدير أكاديمية روما (فاروق حسـني).. الذى كان يسـير معها ويختار لها بعض الفسـاتين، ويتحرك معها في بعض الأزقة والشـوارع الإيطالية.. وقد حفظت زوجة الرئيس السـابق هذا الأمر.. وعندما طرح عاطف صـدقي اسـمه.. أوصـت به خيراً.. وليتها ما فعلت فلقد جنت هذه السـيدة على مصر وثقافتها جناية لا تغتفر!

وتحت جناح حسني مبارك استمر فاروق حسنى –هذا- ٢٣ سـنة فجاء بالثقافة المصـرية إلى الأرض.. دون أن يتحرك رئيس الدولة الذي لم يكن يعرف من الثقافة إلا بعض الأسماء..

وكان يعترض عدد من المثقفين المصـريين على إدارته للثقافة وتقاعس دور مصـر، وترحيب بعض الأصـوات إما بتوليهم بعض إصدارات وزارة الثقافة أو إعطاء نفر منهم منحا تفرغيـة.. «لإبعـادهم» المهم أنـه فرّغ الوزارة من المبـدعين وظـل يـدير مجموعـة من الموظفين ويحيط نفسـه بعـدد من الشـباب الصـغار.. وكان إذا وقع في محظور ووجد نفسـه في مواجهـة مع مثقفي عصـره كان يهرع إلي زوجـة الرئيس.. لتشمله رعايتها وتجعل كبار رجال السياسية أمثال مفيد شهاب وزير التعليم العالى وكبار رجال الدين أمثال أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر الأسبق يذهبون إليه ويطلبون منه الصفح والمغفرة.. !

حدث ذلك في أزمة الحجاب عندما طلب من فتاة صـــحفية أن تخلعه واصـــفا إياه بأنه رمز من رموز التخلف.. ولقد هاج مفيد شـهاب وماج أحمد عمر هاشـم وتجاوب معهما الشـعب، فلجأ فاروق حســني إلى (الهانم) «فعادت المياه إلى مجاريها.. بالأمر! ..

وبدون مقدمات وجدت حركة غير عادية في مكتب الأهرام في باريس وعلمت أن فاروق حســني ســوف يزور المكتب.. لأنه هنا منذ عدة أيام في زيارة خاصة!

وجـاء مع الوزير مـدير مكتبـه وعـدد من رجـال الوزارة وكانوا كلهم من الشـباب الواعد؛ وهو أمر أسـعدنا على بُعد.. لأنه لأول مرة يجد الشـباب فرصـتهم.. وكانوا يشـكون مر الشـكوى من أن الكبار أو العجائز كانوا يظلون في مقاعدهم طويلاً، فيقطعون الطريق أمام الشـباب.. على أية حال لولا توجه وزارة الثقافة لظل شباب مصر في النسيان!

وبين الحاضـرين كان رجلاً مغربيا يدعى «رمضــان»، يلبس جلبابا وشـبشـبا متواضـعاً ولفت نظري أن مدير المكتب كان يخصه باحترام شديد ويلقبه بالأستاذ رمضان! ويطلب منا أن نحقق له رغباته دون اسـتفسـار.. كما لفت نظري أنه كان يتكلم عن الوزير الفنان باسمه مجردا من أية صفة!

ثم علمت أن الأسـتاذ رمضـان هو من الأصـدقاء المقربين للفنان فاروق حسـني يعرفه منذ كان يشـغل منصـب المسـئول الثقافى بالمركز الثقافي المصـري. وقال أحد العارفين ببواطن الأمور أن فاروق حسني كان يسكن معه، أو يسكن حجرة فوق السطوح بالقرب منه وقال أيضـا أن فاروق حسـني كان يعرفه ويعرف أهله ويحب أن يطمئن عليهم بين وقت وآخر!

وأقول الحق لقد أكبرت ذلك في الفنان – الوزير الذي لم ينس بعد الوزارة وبعد أن أصبح من علية القوم أصدقاءه المغاربة الذين كانوا يعملون في عمل متواضع عبارة عن بائع فى متجر مغربي!

فجأة وجدت لوحات على جدران المكتب.. وعلمت أنها من أعمال الفنان فاروق حسني اشتراها منه مدير المكتب الذي كان يريد أن يخطب وده في ذلك الوقت.. ولكي لا يقال أنه أخذ لوحات فاروق حسني فقط وضع مدير المكتب لوحة للفنان الراحل حامد عبد الله من قبيل در الرماد في العيون ومن عجائب القدر أن إحدى لوحات فاروق حسنى لم يجدوا مكانا لها في مصر بعد العودة الميمونة لمدير المكتب (وبيع المكتب) سوى المطعم في الدور الثاني عشر!

وبين عشية وضحاها وجدنا الوزير الفنان لا يكاد تمر موقعة يتسبب فيها إلا ونجد أخرى.. لكنه في كل مرة كان يخرج منها كما تخرج الشعرة من العجين!

فقد تسبب هذا الفنان في وفاة أكثر من خمسين من مُبدعي ونقاد المسرح فيما عُرف بمحرقة بني سويف.. وقامت الدنيا في الثقافة ولم تقعد.. وهرع فاروق حسني لزوجة الرئيس لأن المقصلة دنت كثيراً من رقبته.. واتصلت (الهانم) بالأشخاص المعنيين وأخرست أصواتا كانت تطالب بالقصاص في البرلمان.. وانتهت المهزلة بأن قام فاروق حسني –دون أن يبالي- بإلباس التهم إلى شخص آخر هو مصطفى علوي.. وبعد سنوات كان لا بدٍ أن يخرج مصطفى علوي.. رئيس هيئة قصور الثقافة بريئاً!

ونجا فاروق حسني من التهمة.. واستمر في جبروته محمياً ليس فقط من زوجة الرئيس ولكن من الرئيس شخصيا إلى حد أن وصفته بعض الجرائد المصرية المعارضة بأنه فاروق حسني مبارك وليس فقط فاروق حسني...!

والحق أن فاروق حسني هبط بالثقافة المصرية إلى أسفل سافلين وقد لجأ إلى شراء المثقفين.. فأفسح لهم المجال في السفر خارج مصر.

وجعل عددا من الصحفيين مستشارين له مقابل عدة آلاف من الجنيهات ورد الجميل.. كنا نجد صورته يومياً في الصفحة الأخيرة بإحدى الجرائد القومية وكأنه كان مقررا على مصر والمصريين.

وفي كل مرة كان يحدث تعديل وزاري نجد اسمه يتصدر الباقين في السلطة.

وبعد أن أسند للشاعر أحمد عبد المعطي حجازي منصب رئيس تحرير «إبداع».. جعل غالي شكري رئيسا لتحرير مجلة «القاهرة».. ولقد أبلى هذا الرجل وذاك بلاءًا حسنا في منصبيّهما.. لكن ليس هكذا تورد الإبل.. يا فاروق.. فقد كانت رائحة هذا الفساد تزكم الأنوف..!

وبعد أن أنهى مدير مكتب باريس مدة الستين عاما، عاد إلى القاهرة وعمل عند فاروق حسني وكيلا للوزارة المسئول عن الشئون الخارجية.. وفي غيبة من الزمن قفز ليكون رئيسا لمهرجان القاهرة السينمائي.. فأتى بهما إلى أسفل سافلين لسبب بسيط لأنه لم يقرأ في حياته كتاباً.. ولم يكن له اهتماماً بالسينما أكثر من أي إنسان.. فقط قد عملت إحدى شقيقاته في السينما وكان لزوجها بعض الأدوار المهمة.. كذلك ابنة شقيقته لها أدوار سينمائية جادة ورصينة، تذكرت هنا أن مدير مكتب الأهرام كان يخطب ود. فاروق حسني في باريس انتظار أن يرد الجميل.. وها هو قد قام بالرد! ودفع الشعب المصرى الثمن!

.. ولأن مدير المكتب كان لا يرى في الكون سوى نفسه فقد اعتدى بالضــرب على الدكتورة ســهير عبد القادر التى تنظم ســنويا مهرجان الســينما ولم يكن له من دور ســوى أن يضــع اســـمه في نهاية العمل والحق يُقال لقد اعتاد على ذلك: فعندما قمـت فى مكتـب الأهرام في بـاريس بعمـل حوار مع وزير خارجية مصــر وقتئذ – طلبنى في مكتبه وأملانى ســطرين هزيلين ثم أمرنـي أن أضـع حواري أسـفل السـطرين.. فقلت له أنه حوار وليس تصــريحات ثم انني قمت بإرســاله!! فقامت الدنيا ولم تقعد! وللحديث مكان آخر!

.. وأذكر أني كنت أكتب في أحد الجرائد الأخرى.. وقد فتح رئيس تحرير هذه المطبوعة النيران على فاروق حســني الذي ردم نهر النيل لكي يبني قصــراً منيفاً في منيل شــيحة.. وقد شاركت في هذه الحملة.. واتصل بي رئيس التحرير وطلب أن اســتمر في كتابتي..! وبعد يوم واحد علمت من أحد العاملين معه أن رئيس التحرير طلب المحررين وفي اجتماع قصــير قال بصــيغة الآمر الناهي: لا تكتبوا حرفا واحدا (نقدا) في فاروق حسـني.. وبعد يومين كتب يشيد بفاروق حسـني.. وكأنه لم يفعل أي شئ مع أن (قصـره) مازال موجودا.. والنيل ضـاق كثيراً في منطقة منيل شيحة..

وعلمت أن زوجة الرئيس الســابق اتصـلت برئيس التحرير إياه ووبخته على ما فعل في حق فاروق حســني.. وكـان الرجل أذناً صاغية لما أملي عليه بعد ذلك..

وبدا وكأن فاروق حسني إلها صغيرا.. يفعل ما يحلو له ولا يجرؤ أي إنسان على نقده أو الاقتراب منه إلا بالتقريظ!

والحق أن فاروق حسني قد قضى على الثقافة بالمؤتمرات التي كان يقيمها.. فهو يعرف جيدا أن المثقفين المصريين (غلابة). وإنفاق الأموال عليهم وتسكينهم بالفنادق.. وإطعامهم سيجعلهم كالخاتم في أصبعه.. وهذا ما حدث..!

لكن جاء ترشيحه لمنصب مدير عام اليونسكو ليكشف المستور عندما اعتذر لإسرائيل أولاً عما اعتبره زلة لسان عندما قال بأنه سيحرق أي كتب إسرائيلية تمر من خلال معرض الكتاب! .. وعندما وظف ميزانية وزارة الثقافة لخدمة أغراضه الشخصية والدعوة لانتخابه مديرا عاما لليونسكو!

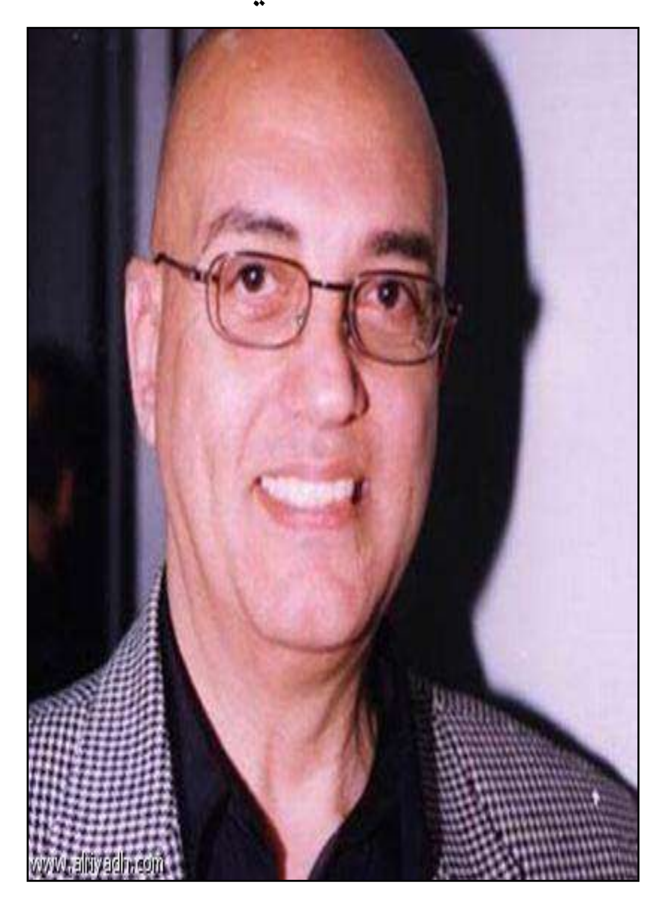
وعندما صورّ الأمر وكأنه منافسة تقف وراءها إسرائيل واليهود.. وقام بتوظيف عدد من الإعلاميين لخدمة أهدافه إما بإغرائهم في وظائف بالتليفزيون أو بإعطائهم آلاف الجنيهات.. ودعوة الوفود العربية والأفريقية والإسلامية على عشاء فاخر في سرادقات أقيمت لهذا الغرض..

.. ومما زاد الطين بلة أن رئيس الدولة خاطبه بعد أن أنفق ما أنفق ووظّف ما وظف ورسب في الامتحان: ارم وراء ظهرك! وكان معنى ذلك أنه باق كوزير للثقافة ولم يسأله أحد عن الملايين التي أنفقها!

وكان هذا أكبر مسمار في نعش الرئيس مبارك السابق.. زاد من كراهية الشعب له، وكذلك لفاروق حسني الذي ثبت أنه فاشل في إدارة ديوان وزارة فكيف نرشحه ليكون مسئولا عن وزارات الثقافة في العالم.

ثم جاءت ثورة الشعب المباركة، ووضعوا هذا «الفاروق» موضع المساءلة القانونية عما اقترفت يداه.. وانتهى عصره، فذهبت كل أشكال المحسوبية والمحاباة ليبدأ عهد جديد قوامه الجد و العمل والنهضة.

محمد سلماوي



وقع في يدي كتاب بعنوان محرر الشئون الخارجية لمؤلفة محمد سلماوي وأشهد أنه كتاب جيد رغم صغر حجمه .. ثم عرفت أنه مجموعة محاضرات كان يلقيها سلماوي على طلبة كليات الإعلام مثل كثير من الصحفيين خصوصا أنه كان يجيد اللغة الإنجليزية.. وعلمت أيضا أنه كان من تلاميذ الدكتور رشاد رشدي.. رئيس تحرير مجلة «الجديد» «الثقافية في ذلك الوقت.

وعمل بالصحافة مترجما في الشئون الخارجية أسوة بكثيرين وبذل جهدا كبيرا في إصدار الأهرام ويكلي ولكن رئيس مجلس الإدارة رأي أن يوكل هذه الجريدة إلى الراحل حسني جندي..وكان كاتبا فذا لا يُشق له غبار وانطلق الأهرام ويكلي انطلاقة كبيرة على يديه...

ثم التفت سلماوي إلي جريدة الأهرام أبدو الفرنسية ووثق علاقاته بسفير فرنسا في مصر، وأقنعه بأن يزكيه رئيسا لتحرير الأبدو وقد كان ..لأن سفير فرنسا ومستشارها الثقافي كان لهما دور في تمويل الأهرام أبدو وفى بعض التعيينات ومنها منصب رئيس التحرير..

وأشهد أنني التقيت بسلماوي أكثر من مرة لأنه كان يتردد على باريس كثيرا.. وفي إحدي المرات جاء إلى مكتبى وسألنى عن أصل الخبر الذي كنت قد أرسلته من باريس ويفيد بأن سفارة السودان في العاصمة الفرنسية كانت تدير عملية محاولة اغتيال الرئيس المخلوع في عام ١٩٩٦.

وأشهد أنني علمت ذلك بالمصادفة عندما روي لي سائق سوداني بأنه ذهب إلى مطار شارل ديجول الباريسي واستقبل هناك، أموالاً في شوالين واتجه بها من فوره إلى طائرة أخرى كانت مُتجهة إلى أديس أبابا لتمويل عملية هناك.. وعندما سألته عن كنه هذه العملية، أجاب السائق بأنه لا يعرف فلعب «الفأر في عبي» وأبرقت الخبر إلى القاهرة حيث المقر الرئيسي لجريدة الأهرام.. وهناك سوف يقرر رئيس التحرير ومن معه في الديسك المركزي مصير الخبر.. لكنني فوجئت به منشوراً على شمال الصفحة الأولى - فوق- مما جعل كثيرين وبينهم سلماوي يهتمون بالخبر ومصدره! ولقد شرحت لسلماوى الخبر بكل خلفياته.

وأذكر أنه شاهد تحت زجاج مكتبي صورة للزعيم جمال عبد الناصر.. فضحك وقال: أنها ليست بطوله أن تضع هذه الصورة تحت زجاج مكتبك إن البطولة الحقيقية هي وضع هذه الصورة في زمن السادات الذي كان (يكره عبد الناصر) كما كان يفعل أبناء جيلي وأنا منهم!

وفهمت أن سلماوي يريد كعادته أن يحتكر البطولة لنفسه كارها أن يعطيها آخرون لأنفسهم؟

في إحدى المرات طلبني بورقة رسمية تخلو من أي تهذيب، وأمرني فيها بأن أوافيه ببعض الأنشطة السياسية في فرنسا.. ففعلت خصوصا أن مدير مكتب الأهرام في باريس كان يقف على رأسي طالباً أن أنجز هذا الأمر.. وكنت عائدا لتوي من مؤتمر حول المتوسط وضعته منظمة اليونسكو تحت إشراف فرنسوا ميتران رئيس فرنسا حينئذ.

***

عدت إلى القاهرة بعد نحو عشـرين عاما مراسـلاً للأهرام في فرنسـا، وحصـلت من جامعتها (السـوربون العريقة) على درجة الدكتوراه.. والتقيت بالمصـادفة بالسيد سلماوي وسألته (وكان ذلك في الأسانسير).

إن كان بالإمكان المسـاهمة في الكتابة بالأهرام ابدو.. فقال لي دون مواربة وبحزم أيضـاً: ليس ممكنا ثم حملق فيّ وسـار مسـرعاً متجهاً «إلى مكتبة!.. واعترف أنني لم أكرر المحاولة وانشـغلت في أمور كثيرة في الجامعة ولم أتذكر هذه المقابلة الفاترة التي خصني بها السيد سلماوي..

ثم جاء اليوم الذي اصـطدمت به في دنيا الصـحافة.. فلقد كتبت في جريدة روز اليوسـف – مقالة بعنوان: لماذا يأكل سلماوي لحم نجيب محفوظ ميتا».. وأشرت فيها إلى أن الرجل مات وشـبع موتاً.. ومازال سـلماوي يكتب عنه دون أن يسـأله أحد: هل هذا صحيح أم لا.. وقلت: أن سلماوي يكاد يتقول على نجيب محفوظ.. ونصحت بضرورة التمييز بين ما كتبه نجيب محفوظ بنفسه وبين ما يكتبه سلماوي على لسان نجيب محفوظ وشـبهت محفوظ هنا بالمفكر الألماني نيتشـه الذي أصـابته في صـدر شـبابه لوثة عقلية وكان على الدارسـين لحياة نيتشـه أن يميزوا بين ما كتبه نيتشـه قبل أن يصـرعه المرض العضـال وبين ما قاله بعد أن فتك به المرض..

وقلت في نهاية مقالتي أن سـلماوي قد جنى بذلك، جناية لا تُغتفر على النص المحفوظي!

ثم ألمحت إلى أنه اعتبر محفوظ «سـبوبه» بمعنى أنه يقول ما يحلو له عن محفوظ ثم يعطيه لبعض الصـحفيين في الإبدو لترجمته ثم ينشر هذا الكتاب باللغة الفرنسية عن محفوظ..

وأذكر أنه ردّ على مقالتي في الأهرام ثم امتنع لاحقا ونهائيا عن افتراءاته في حق النص المحفوظي.. لكن مالا أستطيع نسيانه ما حييت هو هذا الموقف العجيب.. كنا جلوساً في قاعة الدور الثالث بالأهرام عندما دخل علينا إبراهيم نافع رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير وقتئذ وبجواره سلماوي وآخرين..

واحتل نافع مكانه في صدر المنصة بينما جلس سلماوي وسط الصحفيين وكان عددهم لا يقل عن ٣٠٠ صحفي – وكان إبراهيم نافع في معمعة حملته الانتخابية نقيباً للمرة الثالثة وكان يثور حوله جدل كبير.. يؤيده البعض ويرفضه آخرون.. وفوجئنا بسلماوي يرفع يده ليكون أول المتحدثين.. وقال: لا يمكن يا أستاذ إبراهيم أن ترشح نفسك للمرة الثالثة.. وهنا هاج الصحفيون وماجوا استحسانا لما قاله سلماوي، إذ كان كثيرون يرون أنه كفاية «على إبراهيم نافع يمكث فترتين نقيبا للصحفيين..

وبعد أن هدأ الحضور أضاف سلماوي الذي كانت شعبيته في السماء وقتئذ يقول: عُد يا أستاذ إبراهيم إلى بيتك ونحن الذين سنأتي إليك ندعوك لترشيح نفسك لتكون نقيبا لنا لثالث مرة!!.

هنا زمجر البعض من أسلوب سلماوي في الحديث.. لكننا لم ننس أن نافع رئيس مجلس الإدارة الذي عينه رئيساً لتحرير الأبدو.. وبيده أن يجدد له مثنى وثلاث ورباع وهذا معناه أن سلماوي يرد الجميل هنا!!

واعترف أن هذا الموقف من سلماوي كان كاشفاً لأنه أوضح لكل ذي عينين ولسان وشفتين أنه انتهازي إلى أبعد حد.. فنافع لا تريده الأغلبية لكن ما الحيلة وقد لوى سلماوي عنق الحقيقة.. وسار باللقاء إلى حيث يريد..

وفي غيبة من الزمن امتطى سلماوي صهوة اتحاد كتاب مصر وجعل منه إحدى القلاع المؤيدة للنظام السياسي الراحل.. ولبعض رموزه وعلى رأسهم مبارك المخلوع..

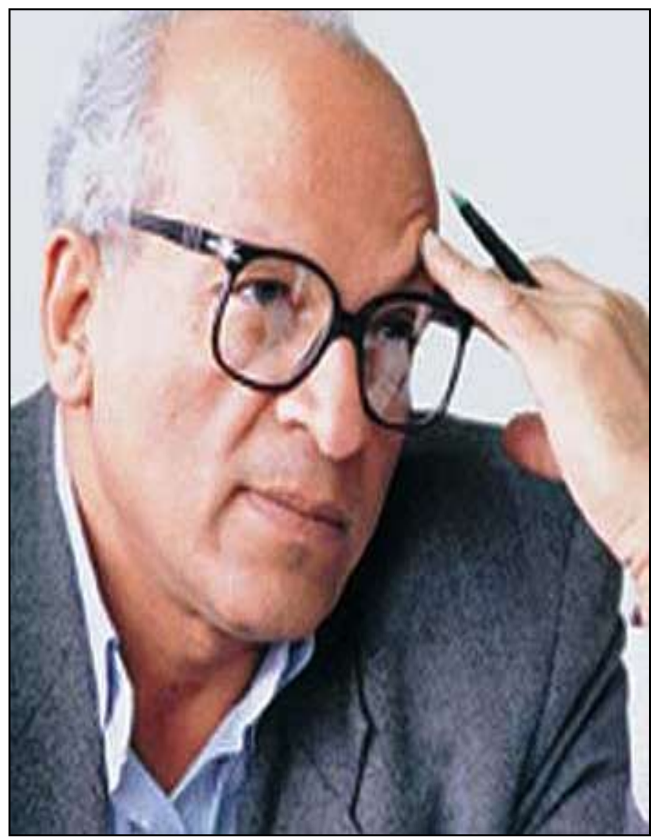
فاستحدث مجلة ضاد.. وجعل منها لسانا لحال الاتحاد وأخذ يوجه رسائل للرئيس المخلوع كي يبقى في مكانه سنينا عددا..

ويستضيف بعض الأدباء العرب، وينفق على البعض الآخر من أدباء الأقاليم، ويقيم مهرجانا في الشعر والأدب كي يضمن الأصوات التي ترجحه إذا ما دخل يوما في انتخابات تجديدية.

والحق أن اتحاد الكتاب قد فقد هويته منذ أن تسلم قيادته سلماوي الذي كان يقوده إلى حتفه.. ويتصور أنه كان يخطب ود النظام القديم.. وليس هناك ما يمنع من خطب ود النظام الحالي.. فما دام سلماوي يقود الدفة فلا بأس!

وقد نما إلى علمنا مؤخراً أن اتحاد الكتاب لم يصوت لسلماوي الذي انكشف أمره فقد كان مؤيدا للنظام المخلوع، ومؤيداً -كذلك- للنظام الحالي.. واكتفى بأن يكتب مقالته في الأهرام (ألغيت بعد ذلك)، واستحدث مساحة أخرى في جريدة المصري اليوم.. لكنه نسي أنه فقد مصداقيته عند القارئ..

جمال الغيطاني



..

طبقت شـــهرة جمال الغيطاني الآفاق وامتدت هذه الشـــهرة من مصر إلى فرنسا وكل من كان يتساءل عن مصر بعد نجيب محفوظ كان يحاول أن يقنع نفســه بأن هناك كثيرين.. من بينهم جمال الغيطاني اختار نفس الخط – ككاتب رواية – لكن الأهم أنه وضـــع كتابا عن نجيب محفوظ بعنوان: أصـــداء الســـيرة الذاتية «قال عنه نجيب محفوظ في تقديمه له: إن هذا الكتاب أغناه عن كتابة سيرة حياته.

لكن للإنصــاف فإن نجيب محفوظ شــئ.. وجمال الغيطاني شــــيء آخر.. فالثاني مثلاً يخطئ كثيرا في اللغة العربية..لكنه كان موفقا في اختيار بعض عناوين رواياته مثل: مذكرات شــاب منذ ألف عام.. والحق لقد تاجر جمال الغيطاني باســم نجيب محفوظ، وصــوّر نفســـه على أنه التلميذ الأول له.. خصـوصـا في العالم الخارجي وتحديداً في فرنسـا التي تعتبر زوجته الكاتبة ماجدة الجندي.. من الفرانكفونيات الأوّل في مصــــر.. ناهيك عن تولي أحد النقاد الفرنســـيين أمر المركز الثقافي الفرنسي في مصر، وتزوج من ناقدة مصرية وكانت له صلة عن طريقها بالأدباء المصريين أمثال الغيطاني الذي دعاه أكثر من مرة إلي باريس لحضــور لقاءات أدبية وندوات ثقافية في معهد العالم العربي.

وللانصــــاف لم يكن جمال الغيطاني هو الوحيد الذي تاجر بنجيب محفوظ ولكن كان هناك بعض الصـــحفيين أمثال محمد سلماوي.. تخصص في فترة من حياته علي التسلق علي أكتاف نجيب محفوظ، فكان يقول (أويدعي لا فرق) أن محفوظ خصه بكلام.. ثم قام– لاحقا- بتجميع هذا الكلام وكلف مجموعة من الصـــحفيين العاملين في الأهرام ابدو بترجمته ثم نشــــره في فرنســـا.. على أنه كلمات ومواقف لنجيب محفوظ وهذا غير صحيح..!

وأمام هذا الادعاء من سلماوي ومن الغيطاني انسحب – بل تواري عن العيون الناقد المسرحي فتحي العشري مع أنه أولى بالحديث عن محفوظ لأنه كان يعمل متطوعاً سكرتيراً له فى أخريات أيام نجيب محفوظ!

وأذكر أن جمال الغيطاني جاء إلى باريس وحددنا يوماً للقاء به في المركز الثقافي المصري بسان ميشيل ودعونا عددا من المهتمين بالثقافة العربية أمثال: عيسى مخلوف اللبناني وأحمد الشيخ المصرى والمفكر د. أنور عبد الملك أيضا...

وتحمست كثيرا لهذا اللقاء وانتهزت الفرصة واعددت كلمة عن دور المثقف العربي فى الهجرة..، ولومى له لأنه تقاعس، ولا يؤدي الأمر المنوط به.. وبعد أن أسهبت في كلمتي وتطوعت بأن رشحت أكثر من كتاب عربي للترجمة مثل كتاب المعقول واللامعقول في تراثنا الفكرى.. للراحل زكي نجيب محمود.. فوجئت بأن جمال الغيطاني الذي أخذ الكلمة بعد هذا التقديم لم يشر له لا من قريب ولا من بعيد. ولم يعلق على دور المثقف وانبرى يتحدث عن نفسه كمراسل عسكري (سابق) وعن مهنته السابقة (كعامل نسيج...) وهي الأشياء التى كنا نعرفها ومللناها إلى حد الثمالة.. لكن ما الحيلة وجمال الغيطاني لم يجد شيئا آخر يتحدث عنه.. !

ولا أخفيكم كان الرجل يخطئ في قواعد اللغة العربية أخطاء فاحشة.. إلى حد أنها كانت تثير دهشتنا.. إذ كيف يكون أديبا لا يشق له غبار.. ويخطئ في اللغة!

أذكر مرة أن جاء مكتب الأهرام في باريس، فقابله مدير المكتب حينئذ ببرود، وكاد يهمله تماما، وادعى أنه مشغول.. وكثيرا ما كان يفعل ذلك مع الأشخاص غير المرغوب فيهم.

ولأن مقابلته كانت مفضوحة في برودها.. اضطررت أن أسأل عن السبب فقيل لي؟ أن مدير المكتب – النصف متعلم على حد قول المفكر الجزائري محمد أوركون، كان كتب اسمه على مجموعة قصصية قام بترجمتها أحد العاملين معه في المكتب، ولشدة فرحته بها، بعث بنسخة إلى جمال الغيطاني الذي كان يرأس تحرير جريدة «أخبار الأدب» ووجد أنه بحكم المعرفة القديمة؛ ولأنه سيلتقى بمدير مكتب الأهرام في باريس أثناء زيارته .. أن يكتب نقدا.. قال فيه، أنه لولا ركاكة الأسلوب الذي كتب به المؤلف أو ترجمها إلى اللغة العربية إلا أن أفكار القصص جيدة..

ولأن صاحبنا – مدير مكتب الأهرام – كان يكره أن ينتقده أحد وكأنه إله صغير، فلقد صب جام غضبه على الغيطاني وأهمله أثناء زيارته للمكتب ولقيه ببرود متناه!

وفي إحدى المرات دعا المستشار الثقافي الفرنسي واسمه ريشارد جاكمون عددا من الأدباء المصريين إلى باريس.. وتعمد أن ينسى الأديب صنع الله إبراهيم – فكتبت في الأهرام الدولي أتساءل عن سبب غياب صنع الله.. فغضب جاكمون كثيرا لأني كتبت بعض المعلومات التي أدلى بها الفنان التشكيلي المغترب سيد درويش!

ولقد التقيت جمال الغيطاني، فلم يسألني لماذا كتبت أو لماذا أغضبت جاكمون.. وتجاهلني كأنه لا يعرفني!

وفي مرة أخرى دعا الصـــحفي المعروف بول بالطا – وكان يعمل في جريدة لوموند، وهو ابن خالة الكاتب المصـــري أنور عبد الملك.. دعا جمال الغيطاني بمناســـبة ترجمة إحدى رواياته على أن يسـلمه جائزة هي شـيك بمبلغ عشـرة آلاف فرنك (كان يُعترف بالفرنك في فرنسا قبل اليورو) وأقول الحق لقد تضـايقت كثيرا من هـذا الأمر لأن الأديب أدوار الخراط كـان رفض في العـام السـابق أن يـأتي وعنـدمـا أخبروه بـأن روايتـه «ترابهـا زعفران». قد ترجمها أصــحاب الجائزة.. قال أنهم يعملون ما ينبغي عليهم عمله.. أما أن آتي إليهم.. فلا وألف لا .. والسبب أن إدوارد الخراط كان يشعر أنه أكبر من هذه الجائزة!

وقلت : إذا كان الخراط قد قال ذلك فليس أقل من أن يفعل نفس الشـــئ جمال الغيطاني.. أما أن يأتي على عجل فهذه إهانة لمحبيه وقراء أدبه!

وكتبت في الأهرام الدولي أقول أن بول بالطا استأجر مطعما لمدة ســاعتين من الواحدة إلى الثالثة لكي يحتفي بالغيطاني ولكي يكرم المحاربين القدامي الجزائريين.. أيضـــاً واشـــترى بعض المقرمشـــات مثل الفول الســوداني والشــيبس.. وزجاجات الكوكاكولا.. لتقديم كل ذلك للضـــيوف الذين لم يأت منهم إلا القليل..!

وقلت أيضـــا أننا نرى أن الغيطاني أكبر من الجائزة.. فلماذا أتى الرجل إذن؟ ولم اكتف بذلك وإنما اتصـــلت به في منزل المســتشـــار الثقافي المصـــري حينئذ وقلت له: كان أليق بك ألا تحضر هذا التكريم الهزيل فنسى كعادته كل شئ وقال:

لماذا تهاجم حضوري – كنت أتصور أنك ستتصل بي لكي تهنئني على ســلامة الوصـــول من القاهرة.. ثم صـــمت لحظة وأضــاف يقول: كنت واهماً عندما تصـورت أنك من المليشـيات الخاصة بجمال الغيطاني!!

يعلم الله كم غضــبت من هذا التوصــيف، فالمســألة ليســت حربا أهلية ناهيك عن أنني لست من ميليشيات جمال الغيطاني أو آخرين. فأنا صـحفي حر أكتب ما يمليه عليَّ ضـميري.. ولا أظننى حسبت الأمر كما الغيطاني..

ولم أذهب هذا التكريم وعرفت أنه لم يحضـره إلا القليلون.. لكن ما لفت نظري أن مدير مكتب الأهرام في ذلك الوقت كان سعيدا بما وقع بيني وبين جمال الغيطانى..

بل طلب أن أكتب شــيئا عن هذه الجائزة لكي يرســله إلى الناقد ســامي خشــبة الذي كان مســئولاً عن صــفحة الثقافة في الأهرام المحلي.. ولم أكتب لأننى كنت اعلم بالضـــغينة التي بينهما ولم أشأ أن أكون طرفا فيها..

فؤاد زكريا



أحد مفاتيح شخصية الدكتور فؤاد زكريا هو غضبه الشديد من أستاذه الدكتور عبد الرحمن بدوي، فقد كان الرجل مرشحا لأحد جوائز الدولة مثل الدكتور عبد الرحمن بدوي، لكن الأخير أقلقه هذا الأمر فكتب تقريرا سيئا عن تلميذه فؤاد زكريا.. ودافع الرجل عن نفسه لمن يهمه الأمر، لكن لم يسفر هذا المسعى عن شئ فكتب فؤاد زكريا رسالة إلى عبد الرحمن بدوي يقول له : يا كاره الناس.. لكن بدوي لم يتأثر بذلك وحسبه أنه تدخل لتطير الجائزة التي كانت قاب قوسين أو أدنى من فؤاد زكريا على أية حال هذا ما قاله لي فؤاد زكريا – عندما زرته في منزله قبل رحيله بعدة أشهر. وأشهد أنه كان مريضاً وتصعب عليه الحركة أو التجول في شقته التي كانت شبه فارغة عندما استقبلنى فيها وهي بالقرب من مسجد رابعة العدوية بالقاهرة.

وعلمت منه أنه يمضي وقته بين القاهرة ولندن حيث تعيش هناك ابنته الوحيدة التي تقطع عليه وحدته.. أما في القاهرة فالأمر في غاية الصعوبة- وحدثنا عن أنه فوجئ ذات يوم بأحد العاملين في الأهرام يطلب منه أن يكتب مقالة أسبوعية.. وبعد أن اهتم فؤاد زكريا بالأمر وأعد مقالته الأولى.. لم يتصل به أحد.. وبعد فترة ضاع الحلم، وكان يود من كل قلبه أن يتواصل عبر الأهرام مع القراء..

وروى لي أنه عندما كان في الكويت، فوجئ بأن أستاذه بدوي هناك وكذلك الدكتور زكي نجيب محمود.. وقال إن بدوى كان إذ رمقه فى الكولوار يدخل مباشرة أى حجرة حتى لا يجد نفسه مضطراً أن يجيب أو يحيى زميله زكى نجيب محمود..

وكشـف عن أن بدوى يكثر من الحديث عن «سـلوى» – بطلة كتابه الحور والنور .. كذلك يروى عن كثيرات التقاهن فى جنيف عندما كان مستشـاراً ثقافياً هناك.. وهو هنا يذكرنا باعترافات جان جاك روسـو الذى كان يعترف بصـداقته للساقطات. مؤكداً أن معظم أبناءه يسكنون إصلاحية الأحداث الباريسية. واعترف فؤاد زكريا أن جان جاك روسو ربما يقول ذلك لإخفاء حقيقة أخرى وهى إنه لم يكن ينجب! كذلك عبد الرحمن بدوى كان يكثر من حديثه عن الفاتنات ليخفى بهذا الحديث شيئاً آخر وهو عدم قدرته على الزواج وضعفه وعدم قدرته أمام الفتيات.

ويقول فؤاد زكريا أنه مقتنع بذلك.. فبدوي لا يعترف مجانا.. وكل من يعرفه أو تربطه به صداقة يعلم ذلك عنه!

وفى مذكراته وأحاديثه كان يتكلم باحترام شديد عن أستاذة أحمد أمين ليس من أجل سواد عيون أحمد أمين طبعاً ولكن من أجل ان يلمز ويغمز في قناة زكي نجيب محمود الذي كان عبد الرحمن بدوى يمقته من كل قلبه! وفي باريس عرفت أن البروفيسـور الجزائري أركون كان يقول إن مؤلفات بدوي كانت تجعله يخر ساجداً شاكرا فضل هذا الرجل على الثقافة والحضارة العربية.. لكن هذا لا يمنع من أن بدوي – شخصيا كان كريها، لا يحب الناس (وأنا منهم).

وقد هاجم بدوي أستاذه طه حسين وقال أنه كان يخاف من زوجته سوزان وكان لا يتحدث عن المستشرقين الفرنسيين إلا بكل احترام وتقدير خوفا منها..

وعندما سألته عن عميد المسرح العربي توفيق الحكيم قال: كنت التقي به في حديقة لوكسمبرج في باريس.. لقد كان من أخلص أصدقائي. لقد نشأت صداقة بيننا منذ وقت مبكر، فأذكر أننا لم نكن نفترق إلا ساعات النوم. كنت أمضي معه ربما تسع ساعات يوميا. كان ذلك في القاهرة خصوصاً في فترة الحرب العالمية الثانية. ثم أضاف د. بدوي يقول مبتسماً:

- بالقرب من هذه الحديقة حديقة لوكسمبورج كما تعرف يقع مسرح «الأوديون» الذي كانت تعمل حبيبة توفيق الحكيم في شباك تذاكره.

ثم استطرد يقول ضاحكاً:

- عندما وقع توفيق الحكيم في حبها، وأنفق عليها كل ما كان معه من أموال، فوجئ بها تتركه لتسير مع شخص آخر. فتألم كثيراً. وظل يفكر في كيفية استردادها.. وهداه تفكيره العجيب وقتئذ، إلى أن يتحدث مع شخص يدعي «يوسف شهدي» – كان من فتوات شارع عماد الدين في القاهرة، لكنه جاء إلى باريس بعد أن أُبعد عن مصر، وهو في الأصل تونسي – وطلب منه أن يضرب الشخص الذي أخذ منه حبيبته علقة ساخنة!

لكن «يوسف شهدي» رفض، بحجة أنه لا يريد أن يُضيف إلى مشاكله، مشاكل أخرى. وحسبه ما نال في القاهرة التي طرد منها.

ثم يذكر د. بدوي أنه التقى بصديقه توفيق الحكيم مرة أخرى في باريس عام ١٩٤٩ عندما أوفدته جريدة «أخبار اليوم» ليقضي عاماً في باريس، لكن توفيق لم يمكث سوى ثلاثة أشهر.

وعن صداقته له يقول:

- لقد كان فارق السـن بيننا كبيراً نسـبياً، لكن جمع بيننا العمر الفكري والثقافي. فكنت أشعر بانسجام كبير معه. وليس صحيحاً أنه كان بخيلاً، إلا إذا اعتبرنا أن كل من يرفض أن يُنفق على الآخرين لابد أن يوصف بالبخل!»

كنت أعرف – مثل كثيرين- أن الدكتور بدوي لا يرتاح كثيراً للدكتور فؤاد زكريا، ويروي تلاميذ الرجلين أن الحرب كانت ضروساً بينهما عندما شاءت الأقدار أن يعملا في قسم واحد بجامعة الكويت.

وأشـهد أني التقيت بالدكتور فؤاد زكريا في باريس مرتين على الأقل، ولا أذكر أنه أسـاء للدكتور بدوي تلميحاً أو تصريحاً عندما كنا نذكره عرضا في حديثنا.

ولأنني كنت أعرف أن بين الأستاذين الجليلين ما بينهما من خصـام لم أندهش كثيرا عندما صعدت مع الدكتور بدوي ذات يوم إلى الطابق الثاني في مكتبه «جوزيف جون» بالحي اللاتيني في باريس.. وإذ به ينتزع من بين الكتب كتاباً ليضعه أمام عيني وهو يقول في غضب:

«انظر، هذه هي عينات الكتب التي يحرص الغربيون على إبرازها وترجمتها، فدققت النظر في الكتاب فإذا به عبارة عن مجموعة من المقالات لنفر من الكتّاب العلمانيين أمثال فرج فودة، وسعيد العشماوي، وفؤاد زكريا.. جمعها وترجمها من العربية إلى الفرنسية المستشرق الفرنسي جيل كيبيل».

وأذكر أني سألت الدكتور بدوي قائلا:

ماذا تريد أن تقول؟ أجاب بوجه مُكفهر وقال وهو يشير إلى أرفف الكتب التي تملأ المكان:

- بين هذه الكتب توجد عشرات تقطر سماً على الإسلام والمسلمين.. فأين نحن منها!.

وفهمت من كلام الدكتور بدوي أن الغرب لا يريد أن يفهم من الإسلام إلا ما يريد هو أن يفهمه، ولذلك يُرحب ويُفسح المجال أمام ترجمة مؤلفات الكتّاب العلمانيين دون غيرها.. ومن بين هؤلاء الدكتور فؤاد زكريا.

انزعج الدكتور فؤاد زكريا كثيراً من كلام الدكتور بدوي، وهرع إلى القلم والورق، وكتب رغم مرضه في لندن دفاعاً هو أشبه بالتوضيح، ألقى به الضوء تفصيلاً على سبب انزعاجه ثم عرّج على علاقة العرب بالإسلام من خلال تجربته الشخصية، وانتهى بالدعوة إلى تكريم الدكتور بدوي.

وجاء في هذا الدفاع ما يلي: رأيي أن أستاذنا الكبير عبد الرحمن بدوي قد جانبه التوفيق أكثر من مرة في هذه العبارة المنسوبة إليه فهو أولاً يتحدث باستخفاف عن ثلاثة من أقطاب التنوير في مصر المعاصرة، وكذلك يسيء فهم نوايا المستشرق (يقصد جيل كيبيل) الذي ترجم مقالاتهم وكل المشروع الذي تمت هذه الترجمة في إطاره.

والأمر الذي يدعو إلى العجب هو أن فيلسوفنا الأكبر (عبد الرحمن بدوي) قد فهم العلمانية بأنها هجوم على الإسلام وأراد أن يقنع سامعه بأن الغرب يبدي اهتماماً خاصاً بكتابات العلمانيين لأنها تهاجم الإسلام الذي يخافه الغرب.

هذا الفهم الذي يجعل العلمانية مُرادفة للهجوم على الإسلام هو الفهم الذي يريده غلاة المتطرفين وكثيرون من أشباه الجهلاء في بلادنا.

وأنا أقسم للقارئ أن يدي تتردد في كتابة هذا الكلام، ولكن ما باليد حيلة كما يقول المثل المعروف، فعبارات أستاذنا الكبير لا تترك أي مجال للتردد لأنها واضحة كل الوضوح.

وليسمح لي أستاذي الجليل (عبد الرحمن بدوي) بأن أزيده علماً في هذا الموضوع فأقول إنني أتحدى أي إنسان يأتي بصفحة واحدة في كتابات هذه الأسماء الثلاثة (وهي كثيرة وغزيرة) تتضمن أي شكل من أشكال الهجوم على الإسلام، والشئ الوحيد الذي يهاجمه هؤلاء الكتاب هو «الإسلام السياسي» وما أعظم الفارق بين العقيدة الإسلامية وسوء استخدام بعض الجماعات لها من أجل تحقيق أهداف سياسة أهمها الاستيلاء على الحكم في بلادنا.

وعلى الرغم من أن الدكتور بدوي قد ظل بعيدا عن ساحة الصراع الفكري والسياسي في مصر وفي هذه المنطقة عشرات السنين، فلابد أنه يعرف أن هذه المجموعة التي تحدث عنها بكل هذا العداء تخوض معركة بطولية، منذ سنوات طوال، ضد تنظيمات تملك من المال والرجال ما يجعلها تشكل خطراً جسيماً على مجتمعاتها، وأن واحدا من هذا «الثلاثي» الذي يتشرف بأن يضيفه عبد الرحمن بدوي إلى قائمة شتائمه قد دفع حياته لدفاعه عن مجتمعه ضد أطماع أولئك الذين يغلقون مدارس البنات ويجلدون الفتيات بتهمة ارتداء البنطلون ولا أظن أن الدكتور بدوي سيكون سعيدا لو عاش في مجتمع تسيطر عليه هذه الجماعات.

أما المسألة الثانية التي جانب فيها التوفيق أستاذنا الكبير فهي اعتقاده أن قيام الفرنسيين بنشر كتابات بعض خصوم الإسلام السياسي مترجمة إلى لغتهم، هو مظهر من مظاهر تحيز الغرب ضد الإسلام، وأرجو مرة أخرى أن يسمح لي أستاذنا الكبير بأن أصحح له معلوماته في هذا الموضوع بدوره.

فقد شهدت بنفسي بداية أول مشروعات الترجمة هذه عندما قام القسم الثقافي في السفارة الفرنسية بالقاهرة بترجمة مقتطفات من كتبي أشرف عليها كبير مترجمي السفارة المستعرب القدير «ريشار جاكمون».. وعندما ظهر ذلك الكتاب مُترجما إلى الفرنسية أجريت معي أحاديث كثيرة في إذاعات فرنسا وصحفها الهامة، وكان من الواضح خلال هذا كله أن الهدف من المشروع ليس مهاجمة الإسلام، بل العكس تماما. لأن الفكرة كانت إعلام الغرب بوجود تنوع خصب في الفكر الإسلامي المعاصر وأن العالم الإسلامي لا يفكر فقط بتلك الطريقة النمطية المتحجرة التي ينسبها إليه خصومه في الغرب.

وأود آخر الأمر أن أدلي بدلوي في موضوع تكريم الفيلسوف الكبير عبد الرحمن بدوي بعد أن جاوز الثمانين وأبدأ أولاً فأقول إن موضوع الترشح لجائزة نوبل غير وارد أصلاً وذلك لعدم وجود جائزة مُخصصة للفلسفة أو للعلوم الاجتماعية ضمن جائزة نوبل.

صحيح أن هناك حالتين رُشح فيهما فيلسوفان للجائزة، هما جان بول سارتر (الذي رفضها) وألبير كامي (الذي حصل عليها في سن مبكرة) ولكن الترشيح تم في كلتا الحالتين بناء على الإنتاج الأدبي، وليس الإنتاج الفلسفي لهذين الكاتبين الفرنسيين.

أما عن الجائزة التقديرية المصــــرية فإن قطارها قد فات الدكتور بدوي منذ زمن طويل، وكان من واجب المســـئولين عنها في أول عهدها أن يرشـــحوه لها، أما لو فعلوا ذلك الآن لأصـــبح الأمر مدعاة للســـخرية وســـيكون من حق الجميع أن يتساءل: أين كنتم منذ أربعين سنة؟!.

لذلك فإن المخرج المشــرف من هذا المأزق هو أن يُرشـــح لجائزة جديدة أكبر قيمة من الناحيتين المادية والمعنوية مثل (جائزة مبارك المخلوع لاحقا)، وســـيكون من أكبر مظاهر التكريم في تاريخها، كذلك فإنني أقترح أن تقوم جهة من الجهات التي تملك حق الترشيح لجوائز الملك فيصل العالمية، بترشـيح الدكتور بدوي لجائزة «الدفاع عن الإسـلام» التي هي من الجوائز الثابتة لهذه المنظمة ومبررات الترشيح لا تقتصر على كتابات الدكتور بدوي في الدراســـات الإســـلامية التي تجاوزت المائة كتاب. وإنما المبرر الأهم فهو الكتب الثلاثة التي نشرها باللغة الفرنسية في السنوات الأخيرة وخاض فيها معارك ضد المستشرقين في موقفهم من العقيدة الإسلامية ومن شخصية الرسول عليه السلام ومن القرآن الكريم.

هذه جائزة يســـتحقها الدكتور بدوي عن جدارة وســـيكون حصـوله عليها تكريما عظيما له نظرا لمكانتها العالمية وقيمتها المادية المتميزة.

وأنا على ثقة من أن فرصته في الحصول عليها كبيرة، كما أنني على ثقة أيضـا من أن سـعادتي بحصـوله عليها سـتكون أعظم من «سعادته» بحصولي على جائزة مصر التقديرية منذ بضع سنوات.

رينيه خوّام



يجيز بعض الباحثين ترجمة القرآن الكريم بهدف بلوغ عدة مقاصـــد منها رفع النقاب عن جمال القرآن ومحاســـنه لمن لم يستطع أن يراها بمنظار اللغة العربية من المسلمين الأعاجم، وتيســـير فهم القرآن عليهم بهذا النوع من الترجمــة. ودفع الشبهات التي لفقها أعداء الإسلام وألصقوها بالقرآن وتفسيره كذبا وافتراء، ثم ضللوا بها هؤلاء المسلمين الذين لا يحسنون اللسان العربي من خلال شروحات مزعومة للقرآن. أو مؤلفات علمية وتاريخية للطلاب. ثم تنوير غير المســلمين من الأجانب في حقائق الإســـلام وتعاليمه، وإزالة الحواجز والعقبات التي أقامها الخبثاء الماكرون بين الإســـلام وبين عشـــاق الحق من الأمم الأخرى.

كما يرى باحثون آخرون أن الدافع الأول للترجمة هو إبلاغ القرآن إلى سائر الأمم باعتبار أن الرسول الكريم قد جاء للناس كافة، فتقول الآية ٢٨ من سورة سبأ.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)

والآية ٧٩ من سورة النساء

(.. وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً)

وقد انقسمت الآراء حول شكل الترجمة وهل ستكون حرفية أم معنوية أم تفسيرية...

والمقصـــود بالترجمة الحرفية إجمالا هو نقل ألفاظ من لغة إلى نظائرها من اللغة الأخرى بحيث يكون النظم موافقا للنظم، والترتيب موافقا للترتيب، وقد ثبتت صـــعوبة هذا الشـــكل من الترجمة لأن خواص اللغة العربية تختلف عن خواص اللغات الأخرى خصوصا في ترتيب أجزاء الجملة.

فالجملة الفعلية في اللغة العربية تبدأ بالفعل فالفاعل.. والمضاف مقدم على المضاف إليه، والموصوف مقدم على الصفة، إلا إذا أريد الإضافة علي وجه التشبيه مثل: «كلجين الماء» أو كان الكلام من إضافة الصفة إلى معمولها مثل: كعظيم الأمل وليس الشأن كذلك في سائر اللغات.

ولأن التعبير العربي يحمل في طياته من أسرار اللغة ما لا يمكن أن يحل محله تعبير آخر بلغة أخرى، فالألفاظ في الترجمة لا تكون متساوية المعنى من كل وجه فضلا عن التراكيب... وهنا تكمن استحالة الترجمة الحرفية للقرآن الكريم الذي هو أرفع النصوص العربية فصاحة وبلاغة.

بكلمة أخرى يمكن أن نقول إنه ليس بمقدور أي مترجم مهما كانت درايته باللغات وأساليبها أن ينقل حرفيا النص القرآني إلى لغة أخرى. ناهيك عن أن أية محاولة تزعم لنفسها هذه القدرة فهي تخرج بالقرآن عن أن يكون قرآنا.

أما الترجمة المعنوية فهي تنطلق من تقسيم أي نص بليغ إلى معان أصلية وأخرى ثانوية. والمراد بالمعاني الأصلية هو المعاني التي يستوي في فهمها كل من عرف مدلولات الألفاظ المفردة، وعرف وجوه تراكيبها معرفة إجمالية.

أما المعاني الثانوية فيراد بها خواص النظم التي يرتفع بها شأن الكلام وبها كان القرآن معجزا وهو ما عناه الزمخشري في كشافه بقوله: «إن في كلام العرب –خصوصا القرآن- من لطائف المعاني ما يستقل بأدائه لسان».

وبينما ذهب البعض إلى إمكانية ترجمة المعاني الأصلية مثل الشاطبي الذي قال في الموافقات: «إن ترجمة القرآن على الوجه الأول يعني النظر إلى معانيه الأصلية – ممكن. ومن جهة يصبح تفسير القرآن وبيان معانيه للعامة، ومن ليس لهم فهم يقوي على تحصيل معانيه...» ذهب البعض الآخر إلي استحالة ترجمة المعاني الثانوية للقرآن وحجتهم في ذلك أنه لا توجد لغة توافق اللغة العربية في دلالة ألفاظها على هذه المعاني المسماة عند علماء البيان خواص التراكيب. فوجوه البلاغة القرآنية في اللفظ أو التركيب تنكيرا وتعريفا أو تقديما وتأخيرا، أو ذكرا وحذفا إلي غير ذلك مما تسامت به لغة القرآن، وكان له وقعه في النفوس.

هذه الوجوه في بلاغة القرآن لا يفي بحقها في أداء معناها لغة أخرى لأن أي لغة لا تحمل كل تلك الخواص.

لكن حتى فكرة ترجمة المعاني الأصلية لم تسلم من نقد أو اعتراض فهي من وجهة نظر البعض لا تخلو من فساد، لأن اللفظ الواحد في القرآن قد يكون له معنيان أو معان تحتملها الآية فيضم المترجم لفظا يدل على معنى واحد حيث لا يجد لفظا يشاكل اللفظ العربي في احتمال تلك المعاني المتعددة، وقد يحدث أن يستعمل القرآن اللفظ في معنى واحد مجازي فيأتي المترجم بلفظ يرادف اللفظ العربي في معناه الحقيقي ومن ثم تقع الأخطاء.

وقد أسهب تفسير المنار للشيخ رشيد رضا في هذه النقطة تحديداً، وفصل القول في استحالة ترجمة المفردات فذكر أنه لا يمكن أن تتفق لغتان من لغات العالم في جميع مفرداتها... وأورد مثالا على ذلك بالأسماء الموضوعة ليوم القيامة، وهي كثيرة، فكل لفظ منها، له معنى تدل عليه مادته العربية. وذكر من مفردات الأفعال دلالة صيغها من حيث التكلف والتكثير والمشاركة والمطاوعة ومن مفردات حروف المعاني والأدوات الفرق في العطف بين الواو والفاء. وثم، وبين الحصر بإنما، والحصر بحرفي النفي والإثبات وغير ذلك كثير.

أما في الجمل فقد أشار رشيد رضا إلى الجملة المفيدة بالحال، والفرق فيها بين الحال المفردة وجملة الحال، وما يترتب على ذلك من آثار شرعية، كما أشار إلى الكتابة واستحالة نقلها. وانتقل إلى أسلوب القرآن، وأوضح أنه أظهر وجوه الإعجاز اللفظية، وعرض لنموذج من ترجمة تركية. فنقده بما يدل على أن ترجمة القرآن ضرب من المستحيل.

أما الترجمة التفسيرية فالمقصود بها شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، والمفسر في هذه الحالة يتكلم بلهجة المبين لمعنى الكلام على حسب فهمه، وكأنه يقول للناس «هذا مفهوم من الآية».بعبارة أخرى الترجمة التفسيرية هي ترجمة لفهم شخص. ولا تتضمن وجهة التأويل المحتملة لمعاني القرآن. وإنما تتضمن ما أدركه المفسر منها ولذلك فهي ترجمة للعقيدة الإسلامية ومبادئ الشريعة كما تفهم عن القرآن.

وفي ضـوء صـعوبة الترجمة الحرفية أو الترجمة المعنوية أصبحت الترجمة التفسيرية ضرورة واجبة لأن المسلمين إذا أهملوها، أصبحوا في كثير من بقاع الأرض قوما لا سند لهم، ولا مرجع يجدون بأيديهم مصـــحفا يتبركون بورقه. ويلثمون غلافه. ويضـــعونه على الرأس والعين، احتراما له، لكنهم لا يفهمون ما فيه!

والنتيجة الطبيعية لذلك هي أن معاني القرآن ستظل والحال هذه مســتغلقة على كثير من الأمم وهو ما يعتبر إســـرافا في الجور لا يتفق مع سماحة الدين الإسلامي.

.. ورغم ذلك هناك العديد من الترجمات الفرنســـية للقرآن الكريم منها ترجمة الباحث الفرنســـي من أصـــل لبناني رينيه خوّام الذي التقيته مرة في مطعم صـــغير بالقرب من المكتبة الوطنية الفرنســية وهالني أن الرجل كان يمســك ســندويتشــا بيمناه، ويترجم بيســراه بعد أن بســط نســخة من القرآن الكريم أمامه.

وكان يجلس وســط زحام المطعم وقت الظهيرة.. وبصــعوبة بالغة علمت منه أنه مضـطر أن يفعل ذلك لأنه حصـل على ثمن الترجمة سلفا من دار النشـر.. وأنصـف الثمن في أشـياء عديدة... ولأنه مُرتبط بعقد مُوقع عليه منه فلابد من تسليم الترجمة في أقل من شـــهر! والغريب أن ترجمة رينيه خوّام هي الأكثر انتشــارا.. لأنها موجودة في سـور الأزبكية بجوار نهر السـين.. فضـلا عن أنها رخيصة الثمن وفي متناول الجميع..

وكنت أعلم قبلاً أن أكثر من شخص قام بالترجمة.. منهم شيخ المستشرقين الفرنسيين جاك بيرك الذي كان يقول أن ترجمته ليست إلا ترجمة معاني لأن كلمات القرآن لا تترجم.. وعندما وضع تفسيرا لهذه الترجمة لم يشأ –يرحمه الله – أن يضعه في المقدمة لأن كلام الله حسبما يقول يجب ألا يكون مسبوقا بكلام بشر.. وفضل أن يوضع تفسيره في ذيل الترجمة..!

وعلمت أن عمدة القدس وهو يهودي إسرائيل يُدعي اندريه شواركي قام بترجمة معاني القرآن الكريم.. وزج باسم أحد الأزهريين في مقدمته وقد تبرأ منها الأخير عندما دعوه لبرنامج ثقافي شهر في التليفزيون الفرنسي! كان يناقش الترجمات وخصوصا ترجم شواركى..

الغريب أن العرب والمسلمين قد تركوا كل هذه الترجمات ولم يتهموا إلا صاحب الترجمة الأقرب إلى الصواب وهي ترجمة جاك بيرك.

استندت الاتهامات التي وجهت إلى جاك بيرك إلى مجموعة من القرائن والأدلة، والحيثيات المستمدة من مصدرين.

الأول: هو الحوار الذي كان قد أدلى به إلى صحيفة عربية وبدأه بحديث مطوّل عن ترجمته لمعاني القرآن الكريم عن العلمانية والإسلام ثم تطرق إلى مستقبل الصراع العربي – الإسرائيلي والتغيرات التي يشهدها العالم العربي في الفترة الأخيرة.

أما المصدر الثاني للاتهام فهو الأفكار التي ساقها في الدراسة التي ذيل بها ترجمته لمعاني القرآن الكريم، وتناقش عددا من القضايا التي طرحها الفقهاء الكلاسيكيون وتتعلق بالقرآن الكريم من حيث نزوله وترتيبه وأحكامه.

المصدر الأول: حوار صحيفة القبس:

يذكر جاك بيرك أنه شــرع في ترجمة معاني القرآن الكريم عندما بلغ عمره الستين عاما، لثلاثة أسباب.

الأول: هو الخوف، فقد كان يخشـــى أن يقدم ترجمة غير جيدة، وليســت على المســتوى المطلوب. فيصــغر في نظر المثقفين والمختصين في الدراسات القرآنية، ولذلك انتظر حتى يزداد نضجا بحيث يكون مؤهلا لتقديم ترجمة جيدة وأمينة.

الثاني: هو الحشـــمة، فقد كان يخجل من نص عظيم مثل النص القرآني ولم يتجرأ على الإقدام على ترجمتـه دون أن يكون عوامل المعرفة بـه، وبالإســلام قد تعمقت من خلال دراســاته المتواصــلة والمســتمرة، بحيث يكون في مســتوى ترجمة النص، ولكي لا يحدث أي تقصـير في النص الفرنسـي الذي يتوخى تقديم القرآن الكريم بكل أبعاده اللغوية والروحية إلى لغة أخرى.

الثالث: هو سبب شخصـي محض فيقول: نحن عندما نتقدم في الســن، نبدأ بالتفكير بطريقة أخرى. نبدأ في طرح الكثير من الأســئلة الميتافيزيقية على أنفســنا، أســئلة تتعلق بالموت وجـدوى الحيـاة. وقـد وجـدت في القرآن كثيرا من الاطمئنـان الروحي الذي أسعى إليه.

فالحياة لم تكن تثير أية مشكلة بالنسبة لي عندما كنت شابا. والموت لم يكن يطرح نفســه أمامي كمشــكلة واقعية لأنه بعيد عني.كنت منغمســا في الحياة وفي همومها، أما الآن فإن كل تفكيري ينصــب فيما بعد الحياة وفي التســاؤل الميتافيزيقي وقد وجدت في القرآن الكريم سلوى لي، وفي ترجمته شيئا من هذه الاستجابة إلى عالم ما بعد الحياة

ويرى جاك بيرك أن الترجمات الفرنسية التي قدمت معاني القرآن الكريم قبل ترجمته. قام بها مترجمون لا يحسنون اللغة الفرنسية أكثر من اللغة العربية (والعكس صحيح أيضا) ولذلك شاب ترجماتهم بعض الخلل أو النقص. ويقول إنه قد تعلم اللغة العربية وإنه يتقنها بشكل جيد لأنه درسها لسنوات طويلة، وعاش في البلاد العربية فترة من الزمن. ولذلك فهو يتقنها أكثر من المستشرقين الفرنسيين الآخرين الذين ترجموا القرآن.

ويقول إن معرفته باللغة الفرنسية واللغة العربية هي معرفة متوازينة ولذلك تمكن من تقديم ترجمة جديدة تتلافي نواقص الترجمات الأخرى، وينفي بيرك أنه سيصل بترجمته هذه إلى درجة الكمال فالكمال لله سبحانه، ولكنه يعتقد أن عمله سيكون مفيدا للمسلمين الذي لا يحسنون اللغة العربية، ويحسنون اللغة الفرنسية، لأن قراءة القرآن الكريم ستكون سهلة بالنسبة لهم.

ويرى بيرك أن أفضل ترجمتين فرنسيتين للقرآن الكريم هما ترجمة بلاشير وإن كان ينقصها البعد الروحاني، لأن بلاشير كان ألمانيا، ومن ثم لم يكن قادرا على تذوق المضمون الروحي والأبعاد الصوفية للقرآن.. وترجمة أبو بكر حمزة وإن كانت تفتقر إلى النزاهة العلمية.

ويقول أن هناك شروطاً أخرى إلى جانب الروحانية يجب أن يتحلى بها المترجم وهي البساطة والجمال. فالنص الفرنسي (المترجم) يجب أن يكون بسيطا في ظاهره، لكننا إذا تأملنا هذه «البساطة» اكتشفنا وراءها أغوارا عميقة. كما يجب أن يكون جميلا، لأن القرآن عالج في مواضع عديدة وصف الطبيعية أو وصف الظواهر الكونية والنفسية والإنسانية بأسلوب دقيق في المعنى وجميل ومتين في البناء اللغوي. فإذا كانت اللغة العربية في العصر الجاهلي هي الأكثر جمالاً. وبناء فما بالكم بالقرآن الذي تجاوزها. وكانت لغته أجمل وأمتن منها.

ويرى بيرك أن النص القرآني يجمع بين كل هذه الصفات في بناء لغوي وأسلوب فريد من نوعه ومتكامل. إنه يجمع كل هذه الجوانب في بناء لغوي كلي حي وهذا هو ما يسمونه بالإعجاز فالقرآن علاوة على ذلك نص قديم وحديث في وقت واحد، أي أنه حديث بالنسبة لكل زمان. فهو يمتلك ديناميةً أزلية.. وهذا هو الإعجاز.

ويؤكد بيرك أن القرآن هو كلام مباشر لله بينما الإنجيل هو بمثابة الحديث الشريف في العقيدة الإسلامية، لأن الإنجيل هو ما يقال عن المسيح وما ينقل عنه، وعلى الرغم من اقتناعه بأن أية لغة لا يمكن أن تحل محل أخرى. إلا أنه يعتقد بأن اللغة الفرنسية قادرة على تقديم الأجواء الروحانية للسور القرآنية وإن بقي ذلك مرهونا بشيئين، أولهما جودة الترجمة وقدرة المترجم على توصيل حضور «الوحي» في النص القرآني إلى اللغة الفرنسية وثانيهما أن التقديم لا يمكن أن يضاهي اللغة الأم بل قد يقترب منها.

ويقول بيرك إن القرآن يتميز بمزيج من البساطة والعمق. فالقرآن هو -بشكل عام- كلام بسيط يفهمه الجميع إذا قرئ عليهم أو على الأقل يفهمه غالبية الناس لأنه ليس بكلام معقد، بل سلس وبسيط.. لكن في كل ومضة قرآنية أو جملة، هنالك طبقات كثيرة من المعاني، ولكي تصل إلى فهم المعنى الكلي للقرآن يجب علينا عدم الاقتصار على فهم الطبقة السفلى، وإنما التوغل لفهم الطبقات العليا في ما ورائية النص.

ويعترف بيرك بأن هذه الطبقات من المعاني تمثل صعوبة عند نقل النص القرآني إلى اللغة الفرنسية، ناهيك عن أن اللغة الفرنسية ليست غنية بالمفردات مثل اللغة العربية، وإن كانت غنية بالتراكيب اللغوية.

ويقول إنه استعان بنتائج البحوث اللغوية الجديدة في فهم ترجمات بعض الكلمات ذات الدلالات الواسعة والصعبة في القرآن.

يذكر بيرك أن كثيرا من الناس والمفكرين ينبذون الصورة المادية للحياة المعاصرة، ويرفضون مجتمع الاستهلاك ويفضلون مدنية الإسلام الروحية على المدينة المادية المعاصرة، وينادون بالعودة إليها.

ويقول إن القراءة المتعمقة للنص القرآني وللشريعة الإنسانية التي يطرحها، تكشف لنا أن هنالك قدرا كبيراً من المرونة الملائمة لكل زمان ومكان.. وهذا الجانب هو الذي يخلق شمولية القرآن ومُطلقيته، وزمانيته الأزلية.

ويؤكد أخيرا أن الترجمة الفرنسية الجيدة للقرآن الكريم يمكن أن تساعد القارئ الفرنسي على الدخول إلى المناخات الروحية للقرآن واكتشاف علمية الإسلام وقيّمه، وشموليته...

المصدر الثاني: مقدمة الترجمة:

تقع هذه المقدمة – الدراسة في ٨٣ صفحة من القطع الكبير، وتشتمل على أربعة فصول، تعالج الثلاثة الأولى منها مجموعة القضايا المعروفة والتي سبق أن طرحها الفقهاء الكلاسيكيون ويتعلق بترتيب الآيات القرآنية إما طبقا للفترة الزمنية التي نزل الوحي فيها أو طبقا للأسباب التي دعت إلى نزولها. كما استخدمت الدراسة منهجا علميا شديد الوضوح في ترتيب الآيات من حيث الموضوعات التي تتناولها... اشتملت على فهرس خاص بالأعلام وقائمة بالسور مرتبة طبقا للترتيب الأبجدي للكلمات.

ويقول بيرك إنه استند في كل ما طرحه من قضايا إلى شروحات وتفاسير كبار الفقهاء القدامى مثل الطبري والزمخشري والرازي، كما اعتمد على المفسرين المحدثين مثل الشيخ طه بن عاشور والشيخ القاسمي تلميذ جمال الدين الأفغاني.

ويجزم بيرك بأنه لم يخرج في شروحاته عن أفكار هؤلاء الفقهاء، حتى أن عمله يكاد يكون عبدا تابعا لكل المعطيات التي طرحها الفقهاء السابقون.

ويشير في دراسته إلى التماسك والترابط بين أجزاء القرآن المختلفة. ويؤكد أن القرآن الكريم يدعو إلى عبادة الله عن طريق البصيرة والحكمة التي تتفق مع العقل والمنطق ويذكر أن كلمة «عقل» قد ذكرت في القرآن الكريم أكثر من أربعين مرة، بينما لم تذكر كلمة «مقدس» إلا سبع مرات فقط، وهو ما يدل على أن الإسلام هو دين الاستنارة بلا منازع.

ويعتمد بيرك في تحليلاته على النظريات الحديثة في علوم اللغة والمنطق ليؤكد بها صحة الأحكام القرآنية، وصلاحيتها لكل زمان ومكان. فيعقد مقارنة في هذا الخصوص بين السور المدنية، ومثيلاتها المكية، كما اختبر موقف الناس عندما جهر الرسول الكريم بدعوته. وأخذ يدعو لها بين القبائل.

ويرى بيرك أن الناس قد اتخذوا – حسبما ذكر القرآن الكريم – أربعة مواقف:

الأول: موقف الرافض. أي الذي لم ينشرح قلبه للدعوة.

والثاني: موقف الجاهل. أي الذي لا يريد أن يعرف شيئا عن الدعوة (مثل: أبو طالب عم الرسول).

والثالث: موقف الكافر، وهو الشخص الذي يستمع للدعوة. لكن ينكرها (مثل أبو لهب).

والرابع: موقف المنافق: أي الذي يتظاهر بالتصديق، بينما هو في الحقيقة من أشد الرافضين.

وقد وجد بيرك تفسيرا صحيحا وأكيدا لهذا التقسيم القرآني من خلال ما يعرف في علم السيميوتيقا بالمربع السيميوتيقي.

وانطلاقا من هذا المنظور العلمي اعتمدت الدراسة أيضا في موضوعات قرآنية أخرى، على النظرية البنيوية، وميزت بين ما أسمته بالأساس. والآني، دون أن تخرج عما قاله الكلاسيكيون القدامى.

ويؤكد جاك بيرك أن فلاسفة المسلمين أمثال ابن سينا وابن رشد والفارابي . كان بمقدورهم أن يقوموا بهذه المهمة وهي تفسير القرآن وشرحه اعتمادا على فهمهم العميق لعلوم العقل والمنطق مثلما فعل بعضهم مع فكر أرسطو، لكنهم لم يفعلوا خوفا من ثورة أصحاب اللحى والجامدين عليهم.

ويستطرد بيرك معلقا فيقول:

لقد غاب عن بال منتقديّ أنني في كل تحليلاتي، لم أتعرض للأصول والثوابت، وأصبحت جريمتي في نظرهم، أنني اعتمدت على أقوال أصحاب العلوم العصرية إلى جانب أقوال الفقهاء المسلمين. كما غاب عن بالهم أنني استخدمت هذا المنهج العلمي لتأكيد الرسالة المحمدية لا لدحضها. ولإثبات أن أصول الأحكام القرآنية صالحة لكل زمان ومكان وإن اختلفت التطبيقات، لكن ما حيلتي مع قوم عجزوا عن أن يتعرفوا على السلعة بمجرد أن تبدلت ثيابها.

ويعترف بيرك أن الفصل الرابع في الدراسة التي ذيل بها ترجمته للقرآن، هو أكثر الفصول جرأة، لكن حتى في هذه الجرأة لم يخرج عن حدود المنطق العقلي الذي رسمه القرآن. فأوصى الفقهاء، المسلمين بتغيير ما بأنفسهم بمعنى استحداث أساليب جديدة لتكييف رواؤهم مع ظروف العالم المتغير، كما طالبهم باعتماد القياس كأداة مُستمرة للتجديد. مذكرا إياهم بالحديث الشريف الذي يقول: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يُجدد لها دينها**» رواه أبو داود في السنن.

ويؤكد بيرك أخيرا أن أفكاره التي ساقها في هذه الدراسة لم تسئ لا للقرآن الذي يرى أنه كلام الله وقد نزل وحيا على الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. ولا للإسلام الذي يحترمه كدين يخاطب العقل ويحث على التفكير. ويقول بيرك إنه لو كان مسلما لكن بوسعه أن يتكلم بجرأة أكثر. لكنه كظم نفسه، ولم يشأ أن يتجاوز حدود علاقته كضيف على الإسلام. لأنه يعرف جيدا القيم الإسلامية، ولا يريد أن يخونها كما لا يريد أن يثير فتنة بين أصدقائه من العرب والمسلمين.

مكتب الأهرام





..

مع إصـــــدار «الأهرام الدولي» فكر رئيس مجلس إدارة، ورئيس تحرير الأهرام وقتئذ أن يؤسـس مكتباً للأهرام.. ووقع الاختيار في البداية على الدكتور وليم ويصـــا الذي كان يعيش في باريس ومتخصــص في علوم الإعلام ومُراســل لبعض الصــحف الخليجية وكما قيل، لقد كلّف رئيس الأهرام د. وليم ويصـــا بعدة أشـــياء.. منها اختيار قاعة الحفل والمكتب الذي سيكون مقرا لمراسلة الأهرام..

لكن حســبما قيل أيضـــا تدخل هنا الكاتب أحمد بهاء الدين الذي كان يشـــعر بامتنـان للمترجم م.ش .. لأن الأخير كان مســئولا عن مراجعة بعض المتعاونين مع دار الهلال – التي كان يعمل بها – وكان من بينهم أحمد بهاء الدين الذي كان طالباً في الكلية وكان م. ش يلتقي بأحمد بهاء الدين ويقرّظ ترجمته ويزكيه عند المسئولين في دار الهلال ويُروى أن أحمد بهاء الدين اقترح على رئيس الأهرام أن يكون ابن م.ش مديرا لمكتب الأهرام في باريس.. فما كان من رئيس الأهرام ســوى أن استمع إلى نصيحة أحمد بهاء الدين... وفي الحفل الذي أقيم في باريس بمناســبة افتتاح مكتب الأهرام، أعلن رئيس الأهرام – فجأة أن مدير المكتب الجديد هو ابن المترجم م.ش واعتذر للدكتور وليم ويصـا وأخبره أنه سيتكلم مع رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير أخبار اليوم وقتئذ في أن يكون مراسلاً لها.

ولقد أضـمر وليم ويصـا هذا الأمر في نفســه وتعاطف معه الكثيرون من أبناء الجالية المصـــرية – وكعادته في تفســـير الأمور ذهب وليم ويصـــا إلى أن رئيس الأهرام رفض في اللحظـة الأخيرة أن يعلن تعيينـه مـديرا لمكتـب الأهرام لأنـه مسيحي..

أيا كان الأمر لقد جلس ابن م.ش في المقعد الذى كان اشتراه د. وليم ويصـــا لنفســـه واختار عددا من الإداريين اللبنانيين والصـحفيين المصـريين وتحول مكتب الأهرام في باريس إلى قبلة للمصريين المغتربين بعد ذلك خصوصا أن رئيس الجالية المصرية كان يعمل صحفيا في المكتب لسنوات..

«الغريب أن مدير مكتب الأهرام لم يكن يكتب وإنما كان يُملي وأذكر مرة أن د.عبد العليم محمد مستشار مركز الأهرام كان يعمل فى باريس لأنه كان يُعد أطروحة دكتوراه.. وفي أحد الأيام قال له هات ورقا وقلماً واكتب ما أمليه عليك.. وظل يبحث في الجرائد الفرنسية عما سيكتبه أو بالأحرى ما سيمليه عليه..

وبعد أن فرغ من ســطوره الهزيلة (فلقد كان أســلوبه ركيكاً).. اقترح عليه الدكتور عبد العليم أن يكتب الخبر بنفســه لأنه يعرف اللغة الفرنسية أيضا ومتزوج من فرنسية ويدرس في إحدى جامعات باريس..

وقيل أن هذا الأمر كان فراقا بين الرجلين.. فاحتدّ مدير المكتب في النقاش مع د. عبد العليم وطلب منه أن يترك المكتب فورا (وكلمه فورا هذه .. كانت من لوازمه!)

ورحل د. عبد العليم محمد وهو موقن تماماً أنه كان يعمل مع إنسان مريض..!

والشـــيء نفســـه حدث مع ضـــياء رشـــوان مدير مركز الدراسـات الحالي عندما أصـر مدير المكتب أن يكتب شـيئاً ثم يضـــع إمضـــاءه بعد ذلك علي ما كان يكتب كما كان ضـــياء يصــحح بنفســه له اللغة العربية.. ومنها أن مدير المكتب (إياه) أصــر على أن يكتب كلمة تيار إســلامي بحرف الطاء هكذا «طيار الإســلامي» فقال له ضـــياء – وهو متخصـــص في التيارات الإسلامية أن الصحيح هو أن يكتب التيار الإسلامي بالتاء وليس الطاء!

فكان أن دبت خناقة بين الرجلين تطاول فيها مدير المكتب على ضياء رشوان وحدث أن كان رئيس الأهرام بالمصادفة فى باريس فطلب من ضـــياء أن يترك المكتب، بعد أن أخذ موقف مدير المكتب تماما (وهذه من الأمور الغريبة).. واقترح على ضياء أن يعطيه راتبه الشهري على أن يتفرغ للدراسة التي جاء إلى باريس من أجلها.. فرفض ضـياء هذا الاقتراح.. وذهب دون أن يحصل من مكتب الأهرام على شئ..!

والحق أن رئيس مجلس إدارة الأهرام كـان يقف مع مـدير المكتب في باريس ظالما أو مظلوما.. والصـــحيح أنه كان ظالماً دائماً.. وكان يتقاضى في أوائل تسعينات القرن الماضي كما قيل عشـرة آلاف دولار شـهريا.. أما من يخلفه في المكتب مباشــرة فكان يتقاضى ألفا واحدة! أو ربما أقل!

والحق أنه لم يكن يرى في الكون ســوى نفســه.. ففي إحدى المرات كنت ضـــربت موعدا مع الراحل جلال عيســـى، وكان رئيســا لتحرير آخر ســاعة وجاء الرجل وبرفقته مســاعده أحمد يوسف في الساعة الرابعة.. وانتظر إلى الساعة الخامسة لنعود معاً إلى المنزل! وكان جلال عيســـى اعتاد أن يأتي للعلاج في باريس مرتين في العام.. ورأيت أن أدعوه لأخفف عنه بعضاً من همومه..

ولأن مدير مكتب الأهرام قد جند بعضـــا من أفراد المكتب لإفشـاء أسـرار البعض الآخر فقد علم أن جلال عيســى قد جاء إلى المكتـب وجلس في مكتبي وخرج معي بعـد ذلـك.. وفي صباح اليوم التالي استدعاني وسألني عما إذا كان قد سأل عليه أحد.. فهززت رأســـي نـافياً وقلت: «لا» فقال لي في لهجـة صـارمة.. إذا لم يسـأل عني أحد.. فلماذا جاء جلال عيسـى إلى المكتب إذن..! ثم قال في صـراحة أشـد: أرجو أن تعلم أن هذا المكتب ليس فيه إلا أنا «يقصـــد نفســـه والحوائط بعد ذلك.. وجلال عيســـى إما أن جاء إليّ أو للحوائط فأيهما تختار! قلت في الحقيقـة لم يـأت جلال عيســـى لـك وكـذلـك لم يـأت إلى الحوائط.. وإنما جاء إليّ لأني كنت دعوته إلى بيتي! قلت ذلك بهدوء، ثم انسحبت وذهبت إلى مكتبي!

وفي إحدى المرات وقبل زيارة مبارك الســـابق إلى باريس ولقاء رئيسها فرنسوا ميتران كان يقول« إن مكتب الأهرام في باريس لم يُؤسس إلا لكي يغطى هذه الزيارة فقط!

وحدث مرة أن ذهبت للســيد عمرو موســـى وزير خارجية مصر في ذلك الوقت وجلست معه على مائدة الإفطار وحدثني الرجل باستفاضة بالغة عن الزيارة والعلاقات الثنائية فيما يشبه الحوار.. وكان عائداً من جولة جرى.. لابسا الترينج الرياضي وقال لي بتحد وهو يودعني.. لقد أجريت معك حوارا طويلا.. أرجو أن تنشـره غداً. وسـوف أرى ماذا سـتكتب! والحق كان كلام عمرو موسى. كما كان يبدو لا يخلو من نبرة تحدي. وفي المقهى المجاور قمت بكتابة الحوار وأرســـلته على الفور إلى الأهرام في مصـر.. ثم عدت عند قصـر الضـيافة لأنقل أخبار اللقاءات التي من المقرر أن تحدث..

وبعد نحو ساعتين ذهبت إلي المكتب.. فإذا بمدير المكتب يناديني ليُملي سطرين عن أهمية الزيارة ثم قال لي: اكتب ما قاله السيد عمرو موسى لك.. قلت: ما قاله عمرو موسى هو حوار طويل لا يصح أن أضعه أسفل سطورك.. الشئ الثاني أن هذا الحوار ليس معي الآن.. لأنني أرسلته إلي مصر! فهاج الرجل وماج وصرخ فيّ وطردني من المكتب، ثم ناداني بعنف وطلب مني ألا أقترب من الفاكس بعد ذلك!!

وبعد أقل من ساعة ناداني وقال لي بالحرف الواحد: لو فعلت ما فعلت مرة ثانية سوف أضربك بالحذاء! للإنصاف يجب أن أعترف أنني فلاح مصري شعر بأن كرامته تُهان لا لشئ إلا لأنني أعمل».

وأذكر أن دموعي سبقت كلماتي التي كنت أهزي بها، وكدت أقلب الكرسي عليه دون أن أبالي.

وقد جاء إلي المكتب في ذلك الوقت الكاتب الصحفي سمير غريب الذي كان علي موعد مع مدير المكتب.. فاعتذر الأخير وقال للسكرتيرة لن أذهب معه ولن أفتح المكتب. فغضب سمير غريب، وعاد أدراجه دون أن يلوي على شئ..

وشعر مدير المكتب أنه أخطأ فى حقى وحاول تسكيتي والتخفيف عني.. وقدم اعتذاره الذي برره بأنه كان مشدود الأعصاب بسبب زيارة رئيس الجمهورية!

وفي اليوم التالي اتصلت برئيس تحرير الأهرام وأخبرته وأنا أبكي عما بدر من مدير المكتب.

وفي اليوم الثاني: حدث اجتماع لكل العاملين في المكتب وقدم مدير المكتب اعتذاره ثانيةً.. عما اعتبرته أنا أنه أخطأ في حقي!

باختصار لقد كان مدير المكتب مغرورا، ويرانا جميعا أدوات في يده، يبطش بها حين يريد، ويأتي عليها حين يشاء..

وبعد أن أصبحت رئيسا للجالية المصرية في انتخابات أشرفت عليها القنصلية المصرية وقام بحراستها البوليس الفرنسي.. أقمت حفلة فى العيد الوطنى للمطرب هاني شاكر.. وفوجئت به يطلب مني دعوات واشترط أن تكون في الأمام.. وبعد أن طلب أن أعطيه التذاكر رقم ١ حتى ٥ طلب أن أغيّرها له بعد أن اكتشف أن هذه الأرقام تجعله في الطرف الأيمن وهو يريد أن يكون في منتصف الصف الأول! باختصار لم يكن يرى فى الكون سوى نفسه!

في إحدى المرات طلب مني أن أذهب مع ابنه الصغير لكي يلعب في صالة العاب الكترونية.. ولأنه كان (صغيراً) فيجب أن يكون في حماية شخص كبير.. فوقفت على الباب انتظر.. حتى ينتهي هذا الغر الصغير من لعبه..

ثم جاء مدير المكتب وأخذ ابنه في سيارته دون أن يقول لي شيئا.. وكأنى «لا شئ»

كان مدير المكتب يلعب على شيئين: الأول أن يفسد ما بين أعضاء المكتب وبعضهم البعض.. وذات مرة دخل علينا فوجدنا نجلس معاً فقال: علي من تتآمرون! وفرقنا على الفور.. وتبين لي أن «سعادته» لا تأتي إلا في «شقائنا».

والشئ الثاني أنه كان يوطد علاقاته برئيس الأهرام وأعوانه.. وهو ما جعله يتعامل معنا – نحن أعضاء المكتب، وكأننا أمتعة وكان يقول لي لكي يُبعدني عن الأهرام في مصر: سوف تسافر غدا.. أرجو أن تعلم أن أي كلمة ستقولها في الأهرام سوف تصلني على الفور.. أنني أطلب منك ألا تذهب إلى الأهرام.. هذا أفضل لك!

من الأشياء ذات الدلالة أن سكرتيرة المكتب كانت تقول لى وهي في معرض الحديث عن اســتيائها من المكتب وإدارته: نفســي أعمل حاجه للمكتب وللأهرام.. ثم صــمتت برهة وأضـافت: كل ما أكلف بعمل شــيء أجده لأناس لا يعملون في الأهرام...!

قالت ذلك بعد أن طلب منها مدير المكتب أن تبحث عن حذاء نســائي بمواصـفات معينة طلبه أحد العاملين في رئاســة الجمهورية لمعشوقته ثم لابد أن اعترف بأنه كانت هناك علاقة مريبة بين مدير المكتب وبين المســئول عن ماليات الأهرام.. وكثيرا ما كان يأتي هذا الأخير في زيارات (بنكية) خاصة..

وفي المرات التي كان يأتي فيها رئيس الأهرام باريس كان مدير المكتب (عن طريق الهدايا الثمينة) تُفتح له قاعة كبار الزوار في المطار.. وكان رئيس الأهرام يفرح كطفل بذلك!

وكان يقوم مدير المكتب بدور المســهل «لصـفقات من نوع أن يتنـاول الإفطـار مع الكبير فتـاتـان من لبنـان على أن يقوم مدير المكتب بعمل اللازم لتكون هاتان الفتاتان طوال الوقت مع الكبير وحتما سيعطيهما أموالاً من مصاريف المكتب.. وفي إحدى المرات رتب المستشار الصحفي بسفارة قطر في باريس لقاء للكبير (إياه).. كان يحضـره مدير مكتب الأهرام وعدد من صبايا مطعم لبناني.. كان الكبير يفضله عن غيره..

ومما لا نبغي نســيانه أن مكتب الأهرام كان يتعامل مع أحد القانونيين المصــريين مقابل أجر شــهري كان يتقاضـــاه وكل دوره عمل صــفقات «للكبير» في باريس.. ولا مانع أن يظهر أمام الناس وكأنه يهتم بأمور المكتب..

.. وفي إحدى لقاءات نافع مع مليونير جزائري كان الحديث عن أموال بملايين الدولارات.. ومكتب باريس لا هم له في هذه الحالة سوى رعاية هذه الصفقات في غياب الكبير أو حضوره (لا فرق).

قالت لي إحدى الموظفات بهيئة التليفون أن مسئول الماليات كان يتحدث مع مدير المكتب حتى وقت متأخر بينما هي تستمع إليهما خلسة وعرفت أن مدير المكتب كان يحرضه على عودتي إلى القاهرة لأني أمثل بالنسبة له صداعاً والسبب أني كنت أعرف أكثر مما ينبغي!

كان محمد أركون.. وهو بروفيسور جزائري كان يعمل في جامعة السوربون يطلق عليه النصف متعلم.. وكان يحاول مدير المكتب تقليبه عليّ عندما أصرّ أركون على أن أجري معه حوارا باسم المكتب فكان يقول له أن «سعيد سوف» يتقوّل وينسب إليك تصريحات لم تقلها.. وقال لي أركون أنا مُستعد أن اشهد بما قاله لي سلباً عليك!

كان يربي كلباً اسمه «سنوبى».. وفي إحدى المرات اضطر أن يذهب تركيا ويتركه في فندق كان أجره ٢٠٠ فرنكا في الليلة الواحدة.. وعندما عاد من رحلته وجد الكلب (المسكين) قد أصابه هزال لأنه لم يكن يأكل.. وعلم من طبيبه الخاص أنه لم يكن يأكل لأنه قام بتغيير مكانه! وفي العام التالي اتفق مع أحد رجال المالية بالمكتب وهو لبناني الأصل أن يذهب للسيد سنوبى كل يوم ويقوم بالإشراف على أكله وشربه وفسحته.. وعندما عاد كان أول شئ سأل عنه في المطار هو سنوبي!!

وحول أزمة «هدايا الأهرام» والملايين التي كانت تقدم ثمنا لهذه الهدايا.. علمنا أن مكتب الأهرام في باريس كان يقوم بهذه المهمة ويقوم بشــراء الســاعات الفخمة والأقلام والكرافتات الثمينة ثم يتولى إرسالها.. وهذا الأمر قد أجاب على سؤال مهم هو: ماذا كان يعمل مدير المكتب إياه طوال الوقت.

كان أشبه بأبى العروسة .. مشغول و «مش مشغول» في نفس الوقت ولذلك من يُريد الكشف عن حقيقة الهدايا والملايين التي دُفعت للرئيس المخلوع وزوجته وولديه وبعض المسئولين المحيطين به عليه بســؤال مدير المكتب الذي كان يناله من الحب جانباً كبيراً.

***

أذكر مرة أن جاء إلى المكتب الدكتور أنور عبد الملك عالم الاجتماع الشــهير، وبعد أن فوجئ بمســاحة المكتب وعدد العاملين به.. اندهش كثيرا وقال: لماذا هذا العدد الكبير من العاملين في المكتب.. ألم تر المكتب الخاص بجريدة (لوموند) في القاهرة.. إن به صحفي فرنسي واحد مسئولاً عن الشرق الأوسط كله وليس فقط مصر! الشئ الثاني أن به سكرتيرة فقط معه.. أما هنا وأينما أولي وجهي أجد شخصا، أسأل عنه، فإذا به يعمل في المكتب!

ولابد أن أعترف أن الأهرام الدولي كان به ســت عربات الأولى لمدير المكتب إياه والثانية لزوجته التي كانت تعمل في مكتب الجامعة العربية في باريس، والأربعة الأخر تقوم بتوزيع ٢٢ جرنالاً.. بعدد الســفارات العربية في باريس! .. وهذا ما لم أقله للدكتور أنور عبد الملك.. لكن كان يعرف ذلك فلقد كانت الظروف المالية للمكتب على كل لسان!

أما الســاعي الخاص بالبيت فكان من تونس لم يشــأ مدير المكتب أن يختاره من مصر حتى لا يُفشي أسرار البيت.. لكن كان المكتب هو الذي يدفع له أجره..!

وأخيرا.. لقد ذهبت إلى مكتب مُخرج مصــري، كان يُطل على ميدان النجمة مباشــرة في العاصــمة الفرنســية فنرى بوضــوح «قوس النصــر».. أذكر اني – في هذا المكان الفخم كنا – في مرات عديدة – نقيم اجتماعات اتحاد المصريين!

وذات يوم وجدته مشــغولاً بالرســم.. فتركته، رغم أنه كان يرســم شــيئا مقززا.. (صــناديق قمامة من جميع الأشــكال والألوان.. أحاطها جميعا بوجه إنسان).. حملقت في هذا الوجه مليا.. فإذا به شخص أعرفه جيدا في مكتب الأهرام.. هتفت في نفســى وقلت: لقد عرف صــديقنا المصــرى الوجه الآخر لهذا الشخص..!

وأذكر أن معركة من الوزن الثقيل وقعت بين سـفير مصـر الراحل (أحمد صــدقي) وهذا الشــخص الكريه.. ودار ســجال كثير بينهما لكن ما فهمتـه لاحقا أنـه قال لـه: اخرس.. انـت صــحفي صــالونات!.. وبالفعل كان صــحفيا يكتب أخباره في الأجواء القرمزية.. هذا إذا عرف أن يكتب أصـلاً!! سامحه الله رئيس الأهرام الذى جاء به إلى مكتب باريس وما كان له أن يأتي أصــلاً.. لكن ما الحيلة وقد كان الرجل يُجامل ويقدم هدايا ثمينة ويفتح له قاعة كبار الزوار!!

.. لكن قبل أن أنتهى من هذا الفصــــل رأيت أن أتكلم عن شــــهادتى كنائب لمدير مكتب الأهرام في باريس شــيئاً عددا.. وتحديداً عن قضية هدايا الأهرام التى تزكم رائحتها الأنف.

كان مكتب الأهرام أشــبه بقلعة حصــينة لا يعرف أحد ماذا يدور فيها.. وقد عرفنا الاستبداد ولمسناه من خلال إدارته التى كانت ترى أن الله سـبحانه قد خلقها لتتسـيد على البشـر.. وكنا نحن العاملون في المكتب نتســاءل: أى دور حقيقي يقوم به مكتب الأهرام. كنا نسأل هذا السؤال عندما لاحظنا أن المكتب لا يعمل نهائياً كمكتب.. وكان لا يُعاقر المهنة إلا من قبيل ذر الرماد فى العيون!

.. وأذكر أن الســكرتيرة التى كانت تعمل فى المكتب كانت تقول فى حسـرة: أود أن أعمل شيئاً للأهرام؟! كانت تقول ذلك عندما تجد نفسها مشغولة ليل نهار في البحث عن حذاء حريمى لأحد العاملين فى رئاســة الجمهورية. أو البرفانات له من نوع معين أو قلم حبر خاص. وكذلك كرافتة أو حزام جلد ثعبان أو حوت! ولم نكن تعلم المســكينة أنها تعمل لخدمة قضــية: هدايا الأهرام.. ويؤسفنى أن نبحث عن مُتلقى الهدايا التى تصل ثمنها بــالملايين ونترك مقدمى هـذه الهـدايـا أو البـاحثين عنهـا والمجمعين لها يلهون ويمرحون داخل مصر..

.. ولا أنكر أن مكتـب الأهرام قـد نقـل مرة فى شـــارع ماربوف على الضفة اليسرى من قوس النصر.. وكان قبلاً فى شـقة فى شـارع بونتيو على الضـفة اليمني.. وفى كلا المكتبين كانت هناك حجرة للهدايا.. تكتظ حتى السقف بالكراتين من كل لون وحجم.. ويزداد حجم هذه الكراتين وعددها مع اقترابنا من أعيادة نهاية العام سـنوياً وكنا نعلم أن المكتب يقوم باقتناء أكبر تشكيلة من الساعات والأقلام والكرافتات لإرسالها إلى مصر.. لكن لا نعرف إلى من تذهب هذه الهدايا.. ولأن باريس مشهورة «بالبارفان» فكان المكتب يشــترى «كراتين» بالكامل ثم يقوم بإرسالها إلى مصر..

وأذكر – في إحدى المرات.. أن أرسـل المكتب «بحجرة نوم» بمواصفات خاصة إلى مكتب رئيس التحرير وقتئذ.. قام بتسلمها أحد العاملين فى مكتب الإسكندرية.. أصبح فيما بعد مراسـلاً في أمريكا كنوع من المكافأة على تستره عليها..! وأذكر أن رئاسة الجمهورية كانت على اتصال دائم بالمكتب لا أقول حسـنى مبارك بنفسه ولكن بعض العاملين معه، وكانوا يطلبون البحث عن مواصـفات معينة لبعض الأحزمة أو الساعات أو الملابس والبارفانات.

وكان المكتب يهتم ببعض الشخصيات التى تأتي إلى باريس ويُحملها بالهدايا من جميع الأصـناف والأشـكال.. وكان فى زيارات رئيس الجمهورية يؤكد أنه لم ينشأ إلا لتغطية زيارات رئيس الجمهورية فقط.. يقول ذلك لكي نهتم فقط بهذه الزيارات.. ولا يهم أن يعمل صحافة طوال السنة!

وكان المكتب يحرص على أن يكون المحاسب لبنانيا وليس مصرياً كى لا يُفشى أسراره بين المصريين.

وأنتهز الفرصة وأتساءل عن الطريقة التى بيع بها المكتب كذلك محتوياته.. وهى مفروشـات مكتبية جديدة .. والثابت أن محتويات المكتب بيعت لبعض اللبنانيين بسعر بخس!.. والحق أن مكتب الأهرام في باريس كان ملكية خاصة لمديره فقط كان رئيس وكالة أنباء الشرق الأوسط يرسل بابنه محمد الذي كان طالبا فى كلية الهندسة لكى يعمل ويتفسح في باريس.. ولأنه قد تردد أن رئيس الوكالة قد يصـبح رئيسـاً للأهرام، فكان مدير المكتب يقدم هذه الخدمة لولده مع إعطائه أكبر أجر.. وبعد أن يمضى معنا أشهر الصيف.. كان كل عمله الأرشيفى.. يلقى به مدير المكتب فى سـلة المهملات.. المهم أنه تقاضـى أجراً والسلام!

كنا نعلم أن مكتب الأهرام في باريس هو مكتب للمخابرات المصـــرية فى عهد المخلوع هذا ما أكده لنا أحد العاملين فى سفارة مصر.. وقال أن مديره كان كادراً مهماً فى هذا الجهاز.. كما كنا نعلم أن مهمته الأساسية هى اقتناء وشراء هدايا الأهرام كل سنة والإشراف علي السهرات الباريسية لرئيس الأهرام عندما يأتى إلى العاصمة الفرنسية.

وقد علمنا بالسهرة التى أقامها له المستشار الإعلامى فى ســفارة دولة قطر.. والحســناوات اللبنانيات التى كانت ترافق رئيس تحرير الأهرام وقتئذ.. ثم الســهرة الأخرى التى أقامها مليونير جزائري لرئيس الأهرام الذى أكد لى مدير بنك مصـر الأسبق في باريس أنه كان ينفق خمسة آلاف دولار يومياً علي نزواته وشهواته وهداياه!.. أما المكتب فكان يقوم بتسهيل هذه الأمور..

وأذكر مرة أن جاء المســئول المالى للمكاتب الخارجية إلى باريس وفى المطار قام رجل البوليس الفرنســي بفتح إحدى حقائب السـفر المشكوك بها فاكتشـف أنها مليئة حتى آخرها بمئات الدولارات.. وبعد لغط وسين وجيم اضطر هذا المسئول الســابق فى الأهرام أن يترك الحقيبة والدولارات على أن يتركوه.. دون فضائح!!

الســؤال الآن: لقد عرفنا الآن ما هو الدور الحقيقى لمكتب الأهرام فى باريس الذى ظل مديره أكثر من ٢٢ ســـنة يعمل به.. وما هى قيمة المبالغ التى تركها المســئول الســابق فى الأهرام.. بتدخل من مكتب باريس طبعاً؟ الذى كان يعرف العاملين فى المطار ويبعث لهم بالهدايا فى مناســبة أو غير مناسبة.

لابـد أن أعترف أن حجرة الهـدايـا كـانـت مُحرّمـة على العاملين فى المكتب ولا يدخلها سوى مدير المكتب فقط..

كما لابد أن أقول أنه ظل فى موقعه ٢٢ عاماً لأنه كان يُشرف على تجارة رئيس الأهرام.. هكذا كان معروفاً بين أبناء الجالية المصرية التى كنت رئيساً لها لعدة سنوات.

السيرة الذاتية للمؤلف



- مدير تحرير لوموند ديبلوماتيك

- مدير مركز البحوث والدراسات الأورومتوسطية (بالقاهرة)

- رئيس تحرير (مجلة ملفات دولية) سياسية غير دورية تعنى بشئون حوض المتوسط والحوار العربى الأوروبى

- خبير فى العلاقات السياسية الدولية.
- مدير تحرير الأهرام.
- مدير تحرير لوموند ديبلوماتيك.
- أستاذ الإعلام الدولى.
- أستاذ زائر فى جامعات جنيف، وباريس، وبروكسل.
- عضو المجلس المصرى للشئون الخارجية.
- عضو لجنة المكتبات بوزارة التربية والتعليم.

*** المؤهلات:**

- دكتوراه الدولة فى الفلسفة السياسية من جامعة باريس – السوربون (١٩٨٧).

- دبلوم الدراسات العليا فى تاريخ الفلسفة (١٩٨٣).

- دبلوم الدراسات العليا فى العلوم السياسية (١٩٨٢).

-دبلوم فى اللغة والحضارة الفرنسية (١٩٨١).

- بكالوريوس الاقتصاد والعلوم السياسية من جامعة القاهرة (١٩٧٧).

*** المؤلفات والإنتاج العلمى:**

- **فى العلاقات الدولية:**

١- القرن الـ٢١ هل يكون أمريكياً.

بحث فى استراتيجيا الصراع من أجل الهيمنة على العالم – نهضة مصر (٢٠٠٠) (الطبعة الثانية).

٢- دولارات الإرهاب.

شبكات تمويل الإرهاب فى العالم – نهضة مصر (٢٠٠٠) (الطبعة الثانية).

٣- بدائل العولمة.

طروحات جديدة لتجميل وجه العولمة القبيح – نهضة مصر (٢٠٠٢).

٤- أمريكا فى مواجهة العالم.

حرب باردة جديدة – نهضة مصر (٢٠٠٣).

٥- وفاة الأمم المتحدة.

أزمة المنظمات الدولية فى زمن الهيمنة الأمريكية (٢٠٠٦) الطبعة الثانية.

٦- الشرق الأوسط الكبير – مؤامرة أمريكية ضد العرب.

نهضة مصر (٢٠٠٦) الطبعة الثانية.

٧- أمريكا – أوروبا – ملامح أولية لوفاق دولى جديد

نهضة مصر (٢٠٠٦).

٨- الإسلاموفوبيا – لماذا يخاف الغرب من الإسلام نهضة مصر (٢٠٠٦) – أصدرته مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٧,

٩- العلاقات الأورومتوسطية (٢٠١٤).

❑ فى الفكر والثقافة:

١٠- مثقفون فى مهمة رتوحه: جدل الذات والآخر فى الفكر العربى المعاصر – دار إيجى مصر (١٩٩٩).

١١- عمائم وطرابيش: مصريون عاشوا فى باريس – إيجى مصر (٢٠٠٠) – أصدرته مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٥,

١٢- عبد الرحمن بدوى: فيلسوف الوجودية الهارب إلي الإسلام – مركز الحضارة العربية (٢٠٠١) – أصدرته مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٢,

١٣- إشكالية ترجمة معانى القرآن الكريم – محاكمة جاك بيرك – مركز الحضارة العربية (٢٠٠١).

١٤- كذب المثقفون ولو صدقوا – مواقف وخصومات – نهضة مصر (٢٠٠٤).

١٥- ثرثرة تحت برج إيفل – هموم جيل مغترب - نهضة مصر (٢٠٠٦).

١٦- فوبيا الإسلام فى أوروبا – إشكاليات الوجود العربى والإسلامى فى المجتمعات الغربية – كتاب أخبار اليوم (٢٠٠٦).

١٧- **تجديد الخطاب الثقافى** – مكتبة الأسرة (٢٠٠٨).

١٨- **دموع الريادة المصرية** – صعود وهبوط المد الثقافى المصرى فى العالم العربى – نهضة مصر (٢٠٠٨).

١٩- **أوجاع مصرية** - نهضة مصر (٢٠٠٨).

٢٠- **محمد أركون** – صورة من قريب (نهضة مصر)

٢١- **جامعة السوربون**.. عندما تتكلم بالعربى (دار جزيرة الورد).

٢٢- **حكايات قريتنا** (مطبعة الزعيم).

٢٣- **معاركى فى الحياة** (دار نشر هوامش).

- ❑ **فى الجامعات والدوائر الأكاديمية:**

٢٤- محاضرات فى العلوم السياسية.

٢٥- محاضرات فى مبادئ الاقتصاد والاقتصاد السياسى والدولى.

٢٦- محاضرات فى الميديا والرأى العام.

٢٧- محاضرات فى الإعلام والتنمية

٢٨- محاضرات فى الإعلام العربى (قضايا وإشكاليات).

٢٩- محاضرات فى تطبيقات وسائل الإعلام.

٣٠- محاضرات فى علوم الصحافة وفنون الكتابة (باللغة الفرنسية).

٣١- الخداع الإعلامى.
٣٢- دبلوماسية العلاقات العامة.
٣٣- محاضرات فى التنمية الاقتصادية.

❑ مؤلفات باللغة الفرنسية:

34- La pensée Islamique Contempraine en Egypte (Sindbad – Paris 2001).

35- Cinq Entellectuels Egyptiens á Paris (pas encore Paru).

❑ خبرات بحثية وأكاديمية:

– شارك فى حلقات بحثية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية (منتدى القانون الدولى – مركز الدراسات الأوروبية – مركز البحوث والدراسات السياسية).
– أشرف على رسائل وأطروحات علمية للدكتوراه والزمالة والماجستير فى جامعات (باريس – وورلد الأمريكية- القاهرة – الزقازيق - المنصورة – الأزهر أكاديمية ناصر العسكرية العليا بالقاهرة- معهد الدراسات العربية).

*** الخبرات:**

- أصدر صحيفة صوت مصر فى باريس (١٩٨٣).
- رأس لعدة سنوات أول اتحاد منتخب للجالية المصرية فى فرنسا (١٩٨٩ – ١٩٩٣).
- رأس تحرير صحيفة أخبار الجالية المصرية (١٩٩١).
- أسس المركز المصرى لحوار الثقافات فى باريس (١٩٩٢).
- شارك فى تقديم النشرة الإخبارية وكتب تعليقات سياسية لقناة (ايرونيوز) (١٩٩٦).
- قام بتقديم تعليقات سياسية وبرامج ثقافية فى إذاعتى (مونت كارلو} و (الشرق) بباريس.
- كتب لعدد من الصحف العربية. ونشر مجموعة من الدراسات فى مجلة السياسة الدولية والملف الاستراتيجى، والملف العربى – الأوروبى.
- ألقى محاضرات وشارك فى ندوات دولية (بمنظمة اليونسكو)
- و(جامعة السوربون) و (جامعة مونبيلييه) والمراكز الثقافية العربية فى باريس، وجامعة العين بالإمارات، وجامعة محمد الخامس بالمغرب..
- عمل مراسلاً لمجلة {أكتوبر) فى باريس (١٩٨٢)، ثم للأهرام (١٩٨٧-١٩٩٧).
- أشرف على نحو ٤٠ رسالة ماجستير ودكتوراه فى العلوم السياسية والإعلام.

❑ جوائز ونياشين:

- حصـل على جوائز علمية من مركز الدراسات العربي الأوروبي بباريس وجامعات القاهرة والإسكندرية والمنصورة والمنوفية والأزهر.

- منحته محافظة الدقهلية نيشان التميز كعلم من أبنائها البارزين فى حقل الإعلام والتأليف والكتابة (٢٠٠٨).

*** البيانات الشخصية:**

الحالة الاجتماعية:

متزوج من الدكتورة فاطمة الحصـي وله ولدان - رامى (مهندس)، وشادى (مستشار).

العمل:

-مؤسسة الأهرام

-مدير تحرير الأهرام

-خبير العلاقات السياسية والدولية

-مدير تحرير جريدة لوموند ديبلوماتيك

فهرس الكتاب